جامعة الأزهر
حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بسوهاج

قصيدة طيف سميرة
لمحمود سامي البارودي
المتوفى سنة (١٩٠٤م/ ١٣٢٢هـ)
بين البلاغة والنقد

الدكتورة
هويدا إبراهيم حسن إبراهيم
المدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

العدد الخامس والعشرون
للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م
الجزء الثاني

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٢٣١/ ٢٠١٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا بحث بعنوان :(**قصيدة طيف سميرة لمحمود سامي البارودي المتوفى سنة ١٩٠٤م/ ١٣٢٢هـ بين البلاغة والنقد**)

وكان وراء اختياري لهذا الموضوع عدة أسباب منها :-

- الرغبة في إبراز وإعلاء النصوص التطبيقية في علوم البلاغة .
- تنمية التذوق البلاغي لدى الباحث المتعمق ، وإعانته على فهم القواعد البلاغية والبحث فيما وراءها من أسرار بلاغية .
- حالة الشعر المتردية قبل البارودي ، فقد بعثته العناية الإلهية لينفخ في الشعر العربي روحًا تنشله من ظلمته التي انطوى عليها قرونًا طوال .

فاللغة العربية في عصر ما قبل البارودي كانت في عصرها المظلم ،فلم تجد من يشدُّ من أزرها لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية في الدولة المصرية ، وفشت على ألسنة الناس، وكان الحكام لا يفقهون العربية ولا يقدرونها قدرها ، والكُتّاب في عهد البارودي لم يسْلموا من اللحن الفاحش أو يأتوا بالمفهوم المقبول بل عزّ عليهم اللفظ الجزل ،والأسلوب القوي، فلجأوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عيوب كلامهم ، وأكثروا من هذه الحُلى اللفظية حتى استغلق الكلام . [١] فأردت أن أسلط الضوء على شعره بهذه القصيدة الرائعة التي أحيا بها الشعر العربي من جديد ، والتي جسدت أسمى معاني الأبوة ،

---

(١) انظر نوابغ الفكر العربي (محمود سامي البارودي)بقلم عمر الدسوقي ص ٩ –الطبعة الرابعة١٩٨١– دار المعارف القاهرة

ومعاناة النفي والتشريد ، وتأثره بكل هذا ، وانفعال نفسه به، فنفثه شعرًا جديدا فيه حيوية وقوة ، فاستحق أن يكون باعث النهضة في الشعر الحديث . وهو مع هذا كله لم يُتناول شعره ،ولا تراكيبه ومعانيه من الناحية البلاغية بما يليق به ، ولم يُسلط الضوء على مراحل وأغراض شعره وهو الذي بعث الشعر العربي خلقًا جديدًا.

وكان المنهج الذي اتبعته هو [التحليل التطبيقي للصور البلاغية ،وتناول بعض أبيات القصيدة من الناحية النقدية ، والموازنة بينه وبين بعض الشعراء الذين تلاقى معهم في بعض المعاني التي تناولتها القصيدة] .

وقد قمت بالبحث في المراجع والكتب المختلفة التي تناولت سيرته وشعره ، وحاولت قدر جهدي من خلال قصيدة [طيف سميرة] إلقاء الضوء على أغراض شعره ، والمراحل المختلفة لبناء القصيدة . فوجدتُ أنني أمام نهر فياض كامن الدر في أحشائه ينتظر المزيد من الغوص والبحث والتنقيب عن مكنون درره ، ووجدت أن شعر البارودي في أطواره المختلفة يزداد قوة ووضوحًا كلما تعمقت فيه ،وتزداد فيه الحركة بنوع خاص .

فالبارودي يسجل الصورة في شعره ليس في سكونها وصمتها ولكن في نشاطها وحركتها فيرسم الحياة بكل ما تقع العين عليه، وما يحيط بها من جمال .

[وقصيدة طيف سميرة] تصور الحالة النفسية للشاعر ، وما عليه من وجد وحنين لوطنه ، وأهله إذ أنه شدا بها في منفاه الذي لم يكن يواسيه فيه غير شعره ، فكان وسيلته للصبر والتصبر ، وكان لنفسه نعم العزاء .

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ، وتمهيد ، و لوحات شعرية طبقًا للأغراض التي تناولتها القصيدة، وتعليق نقدي عام على القصيدة ، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس لموضوعات البحث .

أما **التمهيد** – فقد تحدثتُ فيه عن:

– البارودي وسمات شعره .فألقيت فيه الضوء بصورة موجزة عن مولده، وحياته، وتدرجه في المناصب العسكرية ،ثم نفيه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) .

– ثم تحدثتُ بإيجاز عن (سمات شعر البارودي) بوجه عام ، وسمات شعره في هذه القصيدة بوجه خاص.

– ثم ذكرت تلخيصًا موجزًا للدراسات السابقة عن الشاعر والقصيدة محل البحث.

– ثم تحدثتُ عن القصيدة محل البحث ،وقد وضحتُ عاطفة الشاعر ، وسبب إنشاء هذه القصيدة ،فقد تعددت أغراض هذه القصيدة فمن الخيال إلى الوصف ،ومن الحنين إلى الصبر على المكاره ، ومن أبيات الحكمة إلى النصائح ...إلخ .

وقد قسمت القصيدة إلى لوحات شعرية طبقًا للأغراض الشعرية التى تناولتها .

اللوحة الأولي :– بعنوان (خيال زائر) .

اللوحة الثانية : – بعنوان (صفات ابنته وأترابها).

اللوحة الثالثة : – بعنوان (خداع الحياة ،وتقلبات الزمن) .

اللوحة الرابعة :– بعنوان (صبر وأمل) .

اللوحة الخامسة :– بعنوان (حكم وأمثال) .

اللوحة السادسة :– بعنوان (فخر واعتزاز) .

اللوحة السابعة:– بعنوان (أمل ويقين).

وقد تحدثتُ في كل لوحة عن الفكرة الرئيسه للأبيات فيها، وشرحها شرحًا بلاغيًا ، والوقوف على ما فيها من أسرار، ومواطن جمالية ، تُظهر قدرة مبدعها البلاغية على تصوير مجسم لمعاناته ،وتوضيح وتجسيد للمعاني المستمدة من

الأبيات ، مع توضيح معاني الكلمات ، والوقوف على بعض الملامح النقدية في القصيدة .

الخاتمة : وفيها النتائج التي توصلت إليها ، وظهرت لي أثناء البحث .

وذكرتُ أهم المصادر التي استعنتُ بها من كتب الدراسات الأدبية ،وكتب البلاغة بوجه عام. **ووضعت فهرساً لموضوعات البحث** .

وبعد :

فهذا هو البحث الذي أرجو أن يكون فيه إضافة للبلاغة ، وفائدة للدارسين، كما أرجو أن يؤدي دوره في تعميق وفهم النصوص الشعرية لهذا الشاعر العظيم ، ويعمق التذوق البلاغي لدى محبي الشعر الحديث عامةً ، ومتذوق شعر البارودي خاصةً ، ويسهم في إظهار المقدرة البلاغية لهذا العمل الشعري ،ويخلده على مرِّ الأجيال والعصور ،فقد بذلت فيه ما أمدني الله من طاقة، وما رزقني من فهم فإن يكن فيه من خير فمن توفيقه – سبحانه – وما كان غير ذلك فمني .

{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} سورة البقرة آية(٢٨٦).

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

د / هويدا إبراهيم حسن

التمهيد

أ / التعريف بالشاعر -: [١]

ولد محمود سامي البارودي بمصر لأبوين من الجراكسة في السابع والعشرين من شهر رجب عام ١٢٥٥هـ الموافق السابع من أكتوبر ١٨٣٨م ، وكان أبوه حسن حسني بك البارودي من أُمراء المدفعية ، وكان عبد الله بك الجركسي جده لأبيه ، أما لقبه البارودي فنسبة إلي بلدة إيتاي البارود إحدى بلاد مديرية البحيرة ، وكان أجداد البارودي يرقون إلى حكام مصر المماليك ،وكان الشاعر شديد الاعتزاز بهذا النسب في شعره وفي كل أعماله ،فكان له فيه أثر قوي في جميع أدوار حياته ، وفي المصير الذي انتهى إليه .

حُرم البارودي من العطف الأبوي منذ نعومة أظفاره . مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره فكفله بعض أقاربه وضموه إليهم ، وتلقى في بيتهم دراسته الأولى من الثامنة إلى الثانية عشر من عمره، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والترك وأبناء الطبقة الحاكمة ، وتخرج البارودي من المدرسة الحربية في أُخريات عام ١٢٧١هـ الموافق ١٨٥٤م وهو في السادسة عشر من عمره .

بعد مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م قرر البارودي أن يترك الجيش، فالتحق بوزارة الخارجية وسافر إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ،وتعلم اللغتين التركية والفارسية ، وعكف على آدابهما ،ودعته سليقته الشعرية إلى القول بالتركية والفارسية كما قال من قبل بالعربية .على أن السليقة العربية كانت أصيلة في نفسه فلم يفتأ طوال السنين التي أقامها على ضفاف البسفور يقرأ دواوين

---

(١) انظر نوابغ الفكر العربي لعمر الدسوقي ص٢٢- و ديوان البارودي - تقديم الديوان لمحمد حسين هيكل باشا - ضبط وتصحيح وشرح على الجارم بك - ومحمد شفيق معروف - الجزء الأول - ص ٦- ٣٧

الشعراء الأُمويين والعباسيين ، ويدرسها ويستظهر من روائعها ما يطيب له استظهاره ، فكانت إقامته بالأستانة نعمة على شاعريته الخصبة ساهمت في إهداء العرب في عصرهم الحديث شاعرًا فذًا .

عاد البارودي إلى مصر في الرابعة والعشرين من عمره ليبدأ صفحة جديدة من حياته، ومضى يتلمس السبيل الذي شغف به منذ كان صبيًا [سبيل الجيش والحرب، ورُقي البارودي في رتبه العسكرية إلى رتبة قائد مقام (عقيد)،ثم إلى رتبة أميرالاي (عميد)، وبلغ من الرتب العسكرية أسماها (رتبة اللواء) فعُين مديرًا للشرقية فمحافظًا للعاصمة ، ثم أسند الخديو توفيق وزارة الحربية إلى البارودي مع ديوان الأوقاف ،ثم عُين بعد ذلك رئيسًا لمجلس النظَّار . (١)

أدت الأحداث بعد ذلك إلى قيام الثورة العرابية وفشلت ،وبعد فشلها نُفي البارودي مع زعماء الثورة إلى جزيرة سيلان (سرنديب) ، وأقام بها سبعة عشر عامًا وبعض عام ، قضى منها سبعة في مدينة (كولمبو)، ثم انتقل بعدها إلى مدينة (كندي) حيث قضى بها عشرة أعوام تعلم خلالها الإنجليزية ، وعلم بعض أهلها الدين الإسلامي واللغة العربية .

طال به النفي سبعة عشر عامًا ، وتقدمت به السن ،وتخطف الموت أثناء ذلك ابنته وزوجه وأصحابه ،وبدأ بصره يضعف وصحته تضمحل، وهنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون من سرنديب إلى بلادهم . وقد عاد البارودي إلى مصر (أشلاء همة في ثياب) كما وصف نفسه ، وكانت أوبته إلى مصر عيدًا في عالم الأدب كله ،فقد كان يمسك بإحدى يديه قيثارته، ويمسك باليد الأُخرى سيفه، فحقًا هو (رب السيف والقلم).وكان ذلك في ١٨ محرم ١٣١٨هـ-١٧ مايو ١٩٠٠م .

(١)انظر نوابغ الفكر العربي لعمر الدسوقي ص٢٤

قضى البارودي بعد ذلك في مصر أربع سنوات ذهب أثناءها ما بقي من بصره، فلما كانت الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر ١٩٠٤م – السادس من شوال ١٣٢٢هـ لبى داعي ربه تاركًا (لمصر والعالم العربي هذا التراث الذي لا يبلى ، ولم يكن قد طبع المختارات ولا الديوان، فتولت أرملته التي تزوجها بسرنديب [١] طبع المختارات وطبع الجزأين الأول والثاني من ديوانه .

رحم الله صاحب الديوان والقصيدة (رب السيف والقلم) بقدر ما أخلص وقدم للشعر العربي وللغة العربية ما جعله وسيلة إلى الخلود في ضمير الأجيال .

ب / من سمات شعر البارودي : -

كان الشعر العربي يعاني أزمة عنيفة منذ جثم العثمانيون على صدور البلدان العربية، واعتصروا لأنفسهم ما بها من طيبات الرزق . ومن ثم كان طبيعيًا أن يتردى الشعر في هوة عميقة ،وكان الشعراء في هذا العهد يرددون كلامًا لا حياة فيه ولا روحًا ،معادًا ومكررًا ، لا يلذ سمعًا ،ولا يمتع قلبًا ،لولا أنه يجري في أوزان وقوافٍ ما عُرف أنه شعر. [٢]

وفي هذه الأجواء المتدنية للعربية وللشعر العربي ظهر محمود سامي البارودي ، وكانت ملكة الشعر عنده كامنة في حنايا صدره، فراقه من التراث الأدبي شعر الحماسة والفخر، فلقد كان البارودي يحارب كشاعر ، ويكتب الشعر كمحارب ولذا سُمي (برب السيف والقلم). ولا عجب فإنه كما أُنعم عليه بالأوسمة في ميادين القتال، أَنعَم علينا وعلى نفسه ببديع الشعر .

---

(١) ابنة يعقوب سامي أحد زعماء الثورة العرابية .... انظر تقديم ديوان البارودي الجزء الأول – لمحمد حسين هيكل ص ٣٧

(٢) راجع البارودي رائد الشعر الحديث د/ شوقي ضيف ص ١٦٥– الطبعة الثالثة ١٩٧٧م– مطبعة دار المعارف بالقاهرة

ونستطيع القول أن أشعار البارودي تميزت بالأتي :-

١-أنها تشع روعة وجمالاً يأخذان باللب ،فأشعاره الحماسية على سبيل المثال تطوي الزمن بيننا وبينه وتجعلنا كأننا معه في قلب المعركة نرى نزال الأبطال ، ونسمع قعقعة السلاح فنشترك فيها بقلوبنا وإن لم نشترك بسيوفنا كقوله: (١)

خَيْلي مُسَوَمَةٌ(٢) وَرُمْحِي ذَابلُ ***** يَوْمَ الْطّعَان وَصَارِمِي بتَّارُ

٢- لم يصرف النفي والبعد عن الوطن البارودي عن قول الشعر ،بل لقد بعث من المنفى إلى مصر من عيون شعره ما جرى بعضه مجرى الأمثال . (٣)

وفي هذه الفترة أضاف البارودي (الحنين إلى الوطن) إلى أغراض شعره الأُخرى كالفخر والغزل والوصف والحماسة والحكمة وغيرها من الأغراض .

٣-إن الرغبة في التفوق والتميز وإيجاد موضع مرموق هو ما كان يُحرك أشعار البارودي ويسمو بها ، ويُؤكد تفوقه في حلبة الشعراء الفحول الأولين .

فلقد كان البارودي ينسج الشعر على غرار الشعراء القدامى ،وقد تفوق عليهم في بعض الأحيان ، وعندما نستمع إليه يقول معارضًا قصيدة أبي فراس الحمداني التي مطلعها : (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر) وغيرها من

---

(١)انظر ديوان البارودي الجزء الثاني – ضبط وتصحيح علي الجارم – ومحمد شفيق معروف – ص٧٦.

(٢)مسومة : مرسلة ، والمراد معدة للحرب ، انظر المعجم الوجيز ص ٣٣٠ – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م -مجمع اللغة العربية – طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .، رمح ذابل : رقَّ وضمر وهذا كناية عن شدة الطعان في المعارك. انظر المعجم الوجيز ص ٢٤٣ .

- الصارم : السيف القاطع . انظر المعجم الوجيز ص ٣٦٤
- بتَّار : سريع القطع ، وجمعه بواتر . انظر المعجم الوجيز ص ٣٥.

(٣)انظر تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص٢١

المعارضات التي كان ينسجها على غرار الأقدمين تخاله أحدهم ويختلط الأمر عليك إذا أردت أن تميز بين شعره وشعرهم .

فمن معارضته لقصيدة أبي فراس الحمداني التي مطلعها : (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر) كتب معارضًا :- [١]

فكيف يُعيب الناس أمري وليس لي **** ولا لأمري في الحب نهيٌ ولا أمرُ

ولو كان مما يستطاع دفاعه ***** لألوت به البيض المباتير والسمر

على أنني كاتمتُ صدري حرقة ***** من الوجد لايقوى على حملها صدر

إلى آخر الأبيات .

وإن من الحق أن نقر أن البارودي لم يُفنَ في شعر الأقدمين ، ولم يقصر همه على النقل عنهم بل بدت شخصيته بارزة في شعره ، وبدا هذا الشعر مرآة بيئته وزمانه فلو أنه عاصر الأقدمين وعاش بينهم لكان له ما كان للأخطل والفرزدق وأبي فراس من ذاتية يمتاز بها عن غيره ، ويقف بها في الصف الأول مع هؤلاء الشعراء الفحول، ففي شعره بُعث الشعر العربي واللغة العربية من مرقدها ، ورد إليهما الحياة التي ذوت وذبلت قرونًا متعاقبة طغت فيها اللغة التركية على العربية

، وأصبح الشعر يُصنع فيها كحرفة ومورد للرزق .وعندما جاء البارودي كان في عصره جديد ، وبعث النهضة الشعرية الحديثة ،ولهذا تسنم ذروة المجد[٢]

٤-كان البارودي يسجل الصور في شعره ، لم يكن يسجلها في صمتها وسكينتها على ما يُولع به عشاق الطبيعة الصامتة ، بل يسجلها في نشاطها وتحركها حتى يرسم أمامك فيض الحياة في كل ما تقع عليه العين أو تسمع به الأُذن ، فنرى ونسمع ما في الطبيعة من فتنة وجمال ،

---

(١) راجع تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص١٨-١٩

(٢) راجع تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص٣٠

٥- اعتمد البارودي في تصويره الواقع على حاسة النظر أكثر من اعتماده على سواها ، وهي صفة بارزة في شعره كله ، وذلك شأنه بخاصة فيما لم ينزع فيه إلى تقليد المتقدمين . (١)

٦-إن الشعر في عصر البارودي كان باللغة العامية ، أما حياته فقد اتصلت باللغة العربية وكانت بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصرين الأُموي والعباسي . فقد سما بسليقته في اللغة كما سموا ، ونستطيع القول أنه كان يبعث لغة الأقدمين كما كان يبعث معانيهم . (٢)

٧-إن قصائد المديح قليلة في أشعار البارودي على غير ما تميز به الشعراء من أهل زمانه ،وقد قال هذه القصائد مجاملة أو نزولاً على حكم الأحوال ، ولم تكن متصلة بنفسه ، ولا صادرة من وجدانه الأبيٌ المتعالي ، وإنما نجده قد برع في أغراض الشعر الأُخرى كالإباء، والفخر، والحنين، والرثاء، وغيرها من الأغراض ،وعبر عنها تعبيرًا صادقًا عما انطوت عليه نفسه وجوانحه، وتردد في أعماق قلبه،وهذا سر قوته في وصف الحرب ووقائعها ، وسر دقته في التصوير السياسي لحال بلاده. (٣)

...وبعد إن السر في عظمة ما قاله محمود سامي البارودي في المنفى في مختلف ضروب الشعر لكافة الأغراض ومنها قصيدة (طيف سميرة) التي نتناولها بالبحث والتحليل من الناحية البلاغية والنقدية ،أنه قد رأى من بهجة الدنيا ،ومن صروف الأحداث ،ومن عبرة النفي ما لم يراه غيره ، وقد ثقلته الأحداث والمحن والصروف فقال الشعر مخلصًا ومحبًا، وعندما يئس من العودة إلى الوطن أبت عليه نفسه أن يَضْعُفَ فيسترحم كما فعل زملاؤه فطال به النفي إلى سبعة عشر عامًا كانت أشعاره هي سلوته التي يمتطيها لتقربه إلى وطنه

(١) انظر تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص١٤ -١٥.
(٢) انظر تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص ٣٢-٣٣.
(٣) انظر تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص٣٣-٣٤.

وأهله ، ويبعث فيهم شوقًا وحنينًا ،وإليهم وجدًا وحبًّا كما في قصيدة (طيف سميرة) . (١)

وقد امتازت هذه القصيدة بما يمتاز به شعر البارودي من قوة الأسلوب ، وجزالة الألفاظ ، ووضوح المعنى ، واختيار الكلمات في أكثر الأبيات ، وأغراض القصيدة وإن تعددت – متآخية– تصدر عن نفس معذبة أرهقها الحنين إلى الوطن، والأهل ، والأبناء ، فالحزن والأسى كان الحالة التي يعيشها الشاعر ، فأخرج لنا قصيدة تجسد صدق المشاعر ، وروعة الإحساس ، فالعاطفة صادقة ، والكلمات معبرة ، ومجسدة لحالة الشاعر النفسية التي عاشها في منفاه ، وقد أجاد البارودي في ضرب الأمثال ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله عن أن الإنسان قد يأتيه الشر من الموطن الذي يأمل منه الخير فقال:

فَمِنْ صِحَّةِ الإِنْسَانِ مَا فِيهِ سُقْمُهُ ***** وَمِنْ أَمْنِهِ مَا فَاجَأَتْهُ الْمَخَاطِرُ

وقصيدة البارودي زخرت بالعديد من الصور البيانية الرائعة التي تبين مقدرته البلاغية الفائقة على تجسيد المشاعر في صورة مشاهدة مرئية سوف نوضحها إن شاء الله تعالى في ثنايا البحث ، وقد أخذ أكثر معانيه من معاني الأقدمين ،وقد جاءت سهلة واضحة ،ليس فيها غموض ولا تعقيد .

وأشعار البارودي تدل على حبه لشعره وإيمانه به ، وهي شاهدة على صدق إيمانه بأن العبقرية مجهود متصل في سبيل الكمال .

لقد ترك لنا في أشعاره تراثًا لا يبلى ولا يعدو عليه الموت ولا يجني عليه النسيان.

رحم الله صاحب الديوان والقصيدة (رب السيف والقلم) وأجزل له العطاء بقدر ما أخلص وقدم .

---

(١) انظر تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص٢٨-٢٩.

الدراسات السابقة :

يعد البارودي من أهم الشعراء في العصر الحديث، فقد بعث الشعر العربي واللغة العربية من جديد ، وأعاد للغة العربية مكانتها ببديع أشعاره ، ولذا عكف الكثير على دراسة أشعاره من خلال كتب أوأبحاث علمية، أو مقالات ،وغير ذلك ،إلا أن جلَّ هذه الدراسات تناقش قضايا التجديد والتقليد في شعره ، وتتناول أشعاره من الناحية الأدبية ،وإلقاء الضوء على أهم سمات شعره ...إلخ ، ولم يسلط الضوء عليها من الناحية البلاغية ومن هذه الكتب :

١- البارودي رائد الشعر الحديث لشوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٨م.

٢- محمود سامي البارودي شاعر النهضة لعلي الحديدي – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٦٩م .

٣- مختارات من شعر محمود سامي البارودي – للسماح عبد الله – مكتبة الإسراء –القاهرة ٢٠٠٥م .

٤- كتاب القديم والجديد في الشعر العربي الحديث " لواصف أبو الشباب ، الذي يعتقد أننا لا نجد جديدًا في شكل القصيدة ومضمونها عند البارودي، غير أن محاكاته ومعارضته لشعر الأقدمين جديدة ، فقد بذل ما في وسعه من أجل إعادة الحياة للشعر مرة أخرى وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٨م.

٥- بحث بعنوان " شعر المنفى والمغترب لدى محمود سامي البارودي " لمجيد صادقي مزيدي ، نشر مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، مجلة فصلية محكمة ، العدد الحادي والعشرون، عام ١٣٩٠هـ/٢٠١١م، وقد اعتمد الباحث في هذا البحث على التحليل الموضوعي لأدب البارودي ، وركز على ما نجده في شعره من صور الاغتراب والحنين ، ليوضح تأثيرات الغربة في أفكار الشاعر .

٦- بحث بعنوان " مظاهر الاغتراب في قصيدة طيف سميرة لمحمود سامي البارودي، للدكتور عبد الباسط محمد الزيود، والدكتورة سناء نجاتي عياش ، نشر المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها المجلد العاشر ، العدد الثاني ،١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ويهدف هذا البحث إلى تحليل مظاهر الاغتراب في قصيدة " طيف سميرة" ، ليتضح أن مظاهر الاغتراب تعددت ، ومنها: الهروب إلى الطيف ، والهروب إلى الماضي ، والهروب إلى المستقبل البعيد ...إلخ .

٧- ولأهمية قصيدة طيف سميرة فقد وردت ضمن مقررات الصف الثالث من المرحلة الثانوية الأزهرية ، وكان تناولها تناولاً أدبيًا ، ولم يرد فيها إلا قشور بلاغية نظرًا لطبيعة المرحلة التي تُدرس فيها .

ولذا آثرت البحث في هذه القصيدة من الناحية البلاغية والنقدية ، واستخراج مافيها من كنوز بلاغية ، وصور بيانية رائعة تأخذ القلب والعقل معًا ، آملةً أن يكون فيها نفعٌ وإثراء للمكتبة العربية .

تقديم القصيدة :

إن قدرة محمود سامي البارودي كشاعر تتجلى في معظم قصائده وشعره ، وقد أعانته دراسته لدواوين الشعراء المتقدمين من الأمويين والعباسيين ،ومعرفته باللغة العربية التي غاص فيها، وسبر أغوارها واستخرج من مكنون درها الكثير[١]، فأنتج لنا شعرًا في قصيدة (طيف سميرة)كعنقود متمايز في حباته، متغيرًا ورائعًا في مذاقه . وحقًا لا يعرف الشوق غير مُكابده،وشوق البارودي ليس أي نوع من الأشواق فهنا هو شوق المُعذب ،والمُبتلى بالنفي والتشريد ، شوق إلى أهل تركهم ، وابنة فارقها وهي لا تزال تخطوا أولى خطوات حياتها .

(١)انظر تقديم ديوان البارودي لمحمد حسين هيكل ص١١

والبارودي الأب هو أكثر من يعرف ، وأكثر من عانى مرارة اليتم منذ نشأته صغيرًا، فكأنما يُكرر القدر معه نفس الدور ، فقد عانى اليتم بسبب موت أبويه ، ولكن ما يضاعف عذاباته أنه يُدرك أن ابنته الصغيرة تعاني اليتم وهو على قيد الحياة، ولا يستطيع أن يضمها إلى صدره ،ويحنو عليها بما تستحق من في سنها. وهكذا تكالبت عليه الأشواق والأحزان معًا فقال قصيدة (طيف سميرة) من حنايا أضلاعه ،ومن زفرات قلبه بعد أن رأى ابنته الوسطى (سميرة) في المنام وهو في منفاه (بجزيرة سرنديب)، فألحت عليه الذكرى ، وتخطفته الأشواق، وتنازعته الأحزان ، وجافاه النوم ،وكان للحنين السطوة والكلمة العليا .

ونجده ينتقل في هذه القصيدة بين أغراض متعددة ،فمن الخيال إلى الوصف، ومن الحنين إلى الصبر على المكاره ، ومن أبيات الحكمة إلى النصائح .

ينتقل بين هذا كله كطائر يُغرد على أغصان ثابتة وراسية تؤثر في السامع والمتذوق لشعره، حتى تخال أنك تسمع وجيب قلبه من شدة الألم ،أو اضطرابه من شدة الفرح ،وكأن المسافات طويت بيننا وبينه .

وانتقاله بين أغراض متعددة في قصيدة (طيف سميرة) كمثال على أشعاره يضعه بحق في الصف الأول بين الشعراء الفحول المتقدمين .

وقد تم تقسيم القصيدة إلى لوحات شعرية طبقًا لهذه الأغراض .

وقصيدة (طيف سميرة) من بحر الطويل ، وقد دخله" القبض"، فعروضه مقبوضة وضربها كذلك[١]،وتفعيلاته (فعولن مفاعيلن أربع مرات في كل بيت)

---

(١)القبض هو: حذف الخامس المتحرك من فعولن ، أو مفاعيلن ، وهو مستحسن في بحر الطويل . انظر كتاب / أوفى سبيل إلى علمي الخليل للأستاذ الدكتور/ عبد النعيم علي محمد علي عبد ربه – ١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م – ص٢٧ ، ٦١.

ولنمض لننهل من عذب شعره ، وإليكم التفصيل بعد الإجمال فقد أنشد يقول :-

١- تـأَوَّبَ طَيـفٌ مِـنْ سَـمِيرَةَ زَائـرٌ ***** وَمَـا الطَيْـفُ إلاَّ مَـا تُـرِيـه الْخَـوَاطِرُ
٢- طَـوَى سُـدفَةَ الظَلْمـاءِ والَّليـلُ ضَـارِبٌ ***** بِـأَرْوَاقِـهِ ، والـنَجْمُ بـالأُفقِ حَـائِرُ
٣- فَيالـكَ مِـنْ طَيـفٍ أَلمَ وَدونَـهُ ***** مُحيطٌ مـنَ البحـرِ الْجنُـوبِيَّ زَاخِـرُ
٤- تَخَطَّى إلىَ الأَرضَ وَجْـدًا ومَـا لَـهُ ***** سِـوىَ نـزَوَاتِ الشَـوقِ حـادٍ وزَاجِـرُ
٥- أَلَـمَّ ، ولَـمْ يَلْبَـثْ ،وسَـارَ، وَلَيتَـهُ ***** أَقَـامَ ، ولـو طَالـتْ عَلَـىَّ الـدَيـاجِرُ
٦- تَحمـلَ أَهْـوَالَ الظَـلامِ مُخَـاطِرًا ***** وَعهـدِي بِمَـنْ جَـادَت بـه لا تُخَـاطِرُ
٧- خُماسيَّةُ ،لَمْ تَدْرِ ما اللَيلُ والسُرى ***** وَلَـمْ تَنْحَسِـرْ عَـنْ صَفْحَتيها السَتَائِرُ
٨- عَقِيلَـةُ أَتْـرَابٍ تَـوَالِيْنَ حَوْلَهَـا ***** كَمَـا دَارَ بِالْبَـدْرِ النُجُـومُ الْزَوَاهِـرُ
٩- غَوَافِـلُ لاَ يَعْـرِفْنَ بُـؤْسَ مَعِيشَـةٍ ***** وَلاَ هُـنَّ بِالْخَطْـبِ الْمُلِـمِّ شَـوَاعِرُ
١٠- تَعَـوَّدْنَ خَفْـضَ الْعَـيْشِ فِي ظِـلِّ وَالِـدٍ ***** رَحِـيمٍ وَبَيْـتٍ شَـيَّدَتْهُ العَنَاصِـرُ
١١- فَهُـنَّ كَعُنقُـودِ الثُرِيَّـا ، تَأَلَقَـتْ ***** كَوَاكِبُـهَ فِي الأُفْـقِ ، فَهِـىَ سَـوافِرُ
١٢ - تُمَثِّلُهـا الـذِكْرَى لِعَيْنِي ، كَـأَنَّنِي ***** إِلَيْهَـا عَلَـى بُعْـدٍ مِن الأَرْضِ نَـاظِرُ
١٣ - فَطَـوراً إِخَـالُ الظَّـنَّ حَقًـا ، وَتَـارَةً ***** أَهِـيمُ ، فَتَغْشَـى مُقْلَتَـىَّ السَّـمادِرُ
١٤ - فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَتِّي ***** وَيَـا قُـرْبَ مَا الْتَفَتْ عَلَيْـهِ الْضَّمَائِرُ
١٥- فَـإِنْ تَكُـنِ الأَيَّـامُ فَـرَّقْنَ بَيْنَنَـا ***** فَكُـلِ امْـرِئٍ يَوْمًـا إلى اللهِ صَـائِرُ
١٦ - هِي الْدَّارُ ،مَا الأَنفَاسُ إلا نَهَائِبُ ***** لَـدَيهَا ، وَمَـا الْأَجسَـامُ إلا عَقَـائِرُ
١٧ - إِذَا أَحْسَنَتْ يَوْمًا أَسَـاءَتْ ضُحَى غَدٍ ***** فَإِحْسَـانُهَا سَيْفٌ عَلَـى النَّـاسِ جَـائِرُ
١٨- تَـرَبُّ الْفَتَـى، حَتَّـى إِذَا تَـمَّ أَمْـرُهُ ***** دَهَتْـهُ ، كَمَـا رَبَّ الْبَهِيمَـةَ جَـازِرُ
١٩- لَهَا تِرَةٌ فِي كُلِّ حَيٍّ، وَمَا لَهَـا ***** عَلَى طُولِ مَا تَجْنِي عَلَى الْخَلْقِ وَاتِـرُ
٢٠- كَـثِيرَةُ أَلْـوَنِ الـوِدَادِ ، مَلِيَّـةٌ ***** بِـأَنْ يَتَوقَّاهَـا القَـرِينُ المُعَاشِـرُ
٢١ - فَمَـنْ نَظَـرَ الـدُنْيَا بِحِكْمَـةِ نَاقِـدٍ ***** دَرَى أَنَّهَـا بَـيْنَ الأَنَـامِ تُقَـامِرُ
٢٢ - صَبَرْتُ عَلَى كُـرْهٍ لِمَـا قَـدْ أَصَابَنِي ***** وَمَنْ لَـمْ يَجِدْ مَنْدُوحَةً فَهُـوَ صَابِرُ
٢٣ - وَمَا الْحِلْمُ عِنْدَ الْخَطْبِ وَالْمَرْءُ عَـاجِزٌ **** بِمُسْتَحْسَنٍ كَـالْحِلْمِ وَالْمَرْءُ قَـادِرُ

٢٤ - وَلَكِنْ إِذَا قَلَّ النَصِيرُ ،وَأَعْوَزَتْ ***** دَوَاعِي الْمُنَى – فَالصَبْرُ فِيهِ الْمَعَاذِرَ

٢٥ - فَلاَ يَشْمَتِ الْأَعْدَاءُ بِي ، فَلَرُبَّمَا ***** وَصَلْتُ لِمَا أَرْجُوهُ مِمَّا أُحَاذِرُ

٢٦ - فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ ***** وَتَنْهَضُ بِالْمَرْءِ الْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ

٢٧ - وَلِي أَمَلٌ فِي اللهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى ***** وَيَشْرِقُ وَجْهُ الظَنِّ وَالْخَطْبُ كَاشِرُ

٢٨ - إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكَنْ إِلَى اللهِ فِي الَّذي ***** يُحَاذِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهْوَ خَاسِرُ

٢٩ - وَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ ***** فَلَيْسَ لَهُ فِي مَعْرِضِ الْحَقِّ نَاصِرُ

٣٠ - وَمَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الزَمَنِ ومُرَّهُ ***** فَمَا هُوَ إِلاَّ طَائِشُ اللُّبِ نَافِرُ

٣١ - وَلَوْلا تَكَالِيفُ السِيَادَةِ لَمْ يَخِبْ ***** جَبَانٌ ، وَلَمْ يَحْوِ الْفَضِلَةَ ثَائِرُ

٣٢ - تَقِلُّ دَوَاعِي النَفْسِ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ ***** وتَقْوَى هُمُومُ الْقَلْبِ وَهْوَمُغَامِرُ

٣٣ - وَكَيْفَ يَبِينُ الْفَضْلُ وَالنَّقْصُ فِي الْوَرَى **** إِذَا لَمْ تَكُنْ سَوْمَ الرِجَالِ الْمَآثِرُ؟

٣٤ - وَمَا حَمَلَ السَيْفَ الكَمِيُّ لِزِينَةٍ **** وَلَكِنْ لِأَمْرٍ أَوْجَبَتْهُ الْمَفَاخِرُ

٣٥ - إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْمَعِيشَةَ مَطْلَبُ **** فَكُلُّ زَهِيدٍ يُمْسِكُ النَّفْسَ جَائِرُ

٣٦- فَلَوْلاَ الْعُلاَ مَا أَرْسَلَ السَّهْمَ نَازِعٌ **** وَلاَ شَهَرَ السَيْفَ الْيَمَانِيُّ شَاهِرُ

٣٧ - مِنَ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى الدَنِيَّةَ مَاجِدٌ **** وَيَقْبَلَ مَكْذُوبَ الْمُنَى وَهْوَ صَاغِرُ

٣٨ - إِذَا كُنْتَ تَخْشَى كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الرَّدَى **** فَكُلُّ الَّذِي فِي الْكَوْنِ لِلنَّفْسِ ضَائِرُ

٣٩- فَمِنْ صِحَةِ الإِنْسَانِ مَا فِيهِ سُقْمُهُ **** وَمِنْ أَمْنِهِ مَا فَاجَأَتْهُ الْمَخَاطِرُ

٤٠ - عَلَى طِلاَبُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ **** وَلاَ ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ

٤١ - فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ الْعَرِيكَةِ خَائِبُ **** وَلاَ كُلُّ مَحْبُوكِ التَرِيكَةِ ظَافِرُ

٤٢- فَمَاذَا عَسَى الأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا **** عَلَيَّ ، وَعِرْضِي نَاصِعُ الْجَيْبِ وَافِرُ؟

٤٣ - فَلِي فِي مُرَادِ الْفَضْلِ خَيْرُ مَغَبَّةٍ **** إِذَا شَانَ حَيًّا بِالْخِيَانَةِ ذَاكِرُ

٤٤ - مَلَكْتُ عِقَابَ الْمُلْكِ وَهْيَ كَسِيرَةٌ **** وَغَادَرْتُهَا فِي وَكْرِهَا وَهِيَ طَائِرُ

٤٥ - وَلَوْ رُمْتُ مَا رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٌ **** لَصَبَحَنِي قِسْطٌ مِنَ الْمَالِ غَامِرُ

٤٦ - وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي الْكَرِيمَةُ سَوْأَةٌ **** تُعَابُ بِهَا ، وَالدَّهْرُ فِيهِ الْمَعَايِرُ

٤٧ - فَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَالَ يَنْفَعُ رَبَّهُ **** إِذَا هُوَ لَمْ تَحْمَدْ قِرَاهُ الْعَشَائِرُ

٤٨ - فَقَدْ يَسْتَجِمُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبُ **** وَقَدْ لاَ يَكُونُ الْمَالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرُ

٤٩- وَلَوْ أَنَّ أَسْبَابَ السِيَادَةِ بِالْغِنَى **** لَكَاثَرَ رَبَّ الْفَضْلِ بِالْمَالِ تَاجِرُ

٥٠ - فَلاَ غَرْوَ أَنْ حُزْتُ الْمَكَارِمَ عَارِيًا **** فَقَدْ يَشْهَدُ السَيْفُ الْوَغَى وَهْوَ حَاسِرُ

٥١ - أَنَا الْمَرْءُ لاَ يَثْنِيهِ عَنْ دَرَكِ الْعُلاَ **** نَعِيمٌ ،وَلاَ تَعْدُو عَلَيْهِ الْمَفَاقِرُ

٥٢ - قَتُولٌ وَأَحْلاَمُ الرِجَالِ عَوَزِبٌ **** صَئُولٌ وَأَفْوَاهُ الْمَنَايَا فَوَاغِرُ

٥٣ - فَلاَ أَنَا إِنْ أَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ **** وَلاَ أَنَا إِنْ أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ بَاسِرُ

٥٤ - فَمَا الْفَقْرُ إِنْ لَمْ يَدْنَسِ الْعِرْضُ فَاضِحُ *** وَلاَ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَشْرُفِ الْمَرْءُ سَاتِرُ

٥٥ - إِذَا مَا ذُبَابُ السَّيْفِ لَمْ يَكُ مَاضِيًا **** فَحِلْيَتُهُ وَصْمٌ لَدَى الْحَرْبِ ظَاهِرُ

٥٦ - فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ **** تَقَاسَمَهَا فِي الْأَهْلِ بَادٍ وَحَاضِرُ

٥٧ - فَكَمْ بَطَلٍ فَلَّ الزَّمَانُ ثُبَاتَهُ **** وَكَمْ سَيِّدٍ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ

٥٨ - وَأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلاَلَةٌ؟ **** وَأَيُّ جَوَادٍ لَمْ تَخُنْهُ الْحَوَافِرُ؟

٥٩ - فَسَوْفَ يَبِينُ الْحَقَّ يَوْمًا لِنَاظِرٍ **** وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِ الْحُقُودِ السَّرَائِرُ

٦٠ - وَمَا هِيَ إِلاَ غَمْرَةٌ ، ثُمَّ تَنْجَلِي **** غَيَابَتُهَا ، وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ

٦١ - فَمَهْلاً بَنِي الدُّنْيَا عَلَيْنَا ، فَإِنَّنَا **** إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فِيهَا الْمَرَائِرُ

٦٢- تَطُولُ بِهَا الْأَنْفَاسُ بُهْرًا ، وَتَلْتَوِي **** عَلَى فَلْكَةِ السَّاقَيْنِ فِيهَا الْمَآزِرُ

٦٣ - هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ وَاضِحٌ **** وَيَسْفُلُ كَعْبُ الزُّورِ ، وَالزُّورُ عَاثِرُ

٦٤ - وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ **** فَمَا أَوَّلٌ إِلاَّ وَيَتْلُوهُ آخِرُ

اللوحة الأولى : (خيالٌ زائرٌ) بين البلاغة والنقد

١- تـأَوَّبَ طَيـفٌ مِنْ سَمِيرَة زَائـرٌ ***** وَمَـا الطَيْـفُ إلاَّ مَـا تُـرِيـه الْخَـوَاطِرُ (١)

٢- طَوَى سُدفَةَ الظَلْماءِ ، والَّليلُ ضَارِبٌ **** بِأَرْوَاقِـهِ ، والـنَجْمُ بـالأُفقِ حَـائرُ (٢)

٣- فَيالـكَ مِـنْ طَيـفٍ أَلمَ وَدونَـهُ ***** مُحِيطٌ مِـنَ البحـرِ الْجنُـوبِيَّ زَاخِـرُ

٤- تَخَطَّى إلىَ الأَرضَ وَجْدًا ،ومَـا لَـهُ ***** سِوىَ نـزَوَاتِ الشَـوقِ حـادٍ وزَاجِـرُ(٣)

٥- أَلَـمَّ ، ولَـمْ يَلْبَثْ،وسَـارَ، وَلَيتَـهُ ***** أَقَـامَ ، ولـو طَـالتْ عَلَـىَّ الـدَيـاجِرُ(٤)

٦- تَحمـلَ أَهْـوَالَ الظَلامِ مُخَـاطِرًا ***** وَعهـدِي بِمَـنْ جَـادَت بـه لا تُخَـاطِرُ

---

(١) تأَوَّبَ : آتاه ليلاً من آبَ إليه أوْبًا، وأوبةً ، وإيابًا ، ومآبًـا : أي رجـع ، وأوَّب :رجـع الصوت ، وسار النهار كله إلى الليل، وتأوب الشئ : عاوده يقال : تأوبه المـرض انظـر المعجم الوجيز– ص ٢٩-- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعلـيم ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م مجمع اللغة العربية – طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

ـ الخواطر: ما يخطر ببال الإنسان ، وعلى باله خطرًا وخطورًا : وقع فيه . انظـر المرجـع السابق ص ٢٠٢

(٢)السُدفة: بالضم السترة (بضم فسكون)، وهى ما يستر به الشـيء أي يُغطـى ويحجـب ، والسدفة : الظلمة ، وجمعها :سُدف .. انظر المرجع السـابق ص ٣٠٧ ، وطواهـا : أي سلكها وقطعها ، وسار فيها ، من طوى الشئ طيًّا : ضم بعضه على بعض، أو لف بعضـه فوق بعض . انظر المرجع السابق ص ٣٩٨ ، والأرواق : جمع روق (بفتح فسـكون) وهو الستر (بكسر فسكون).

(٣) تخطى الأرض : سلكها وتجاوزها . انظر المرجع السابق ص ٢٠٤، وجدًا : حبًّا أي تخطى بسبب الوجد .انظر المرجع السابق ص٦٦٠ ، النزوات : الوثبات ، جمع نزوة وهى اسـم مرة من نزا نزوًا ، والمراد بنزوات الشوق : نوازعه ودوافعه . انظر المرجع السـابق ص ٦١١ ، حاد: اسم فاعل من الحدو وهو(سوق الإبل)، وحثها على السير بالغناء لها . انظـر المرجع السابق ص ١٤٠ ،زاجر: اسم فاعل من زجر الرجل البعير زجرًا أي حثه وحملـه على السرعة، والزجر الكف والمنع .انظر المرجع السابق ص ٢٨٦.

(٤) ألمَّ به: حلَّ ونزل. انظر المرجع السابق ص ٥٦٥ ، لم يلبث : لم يمكث . انظر المرجـع السابق ص ٥٤٩ ، الدياجر : جمع ديجور وهو الظلام. انظر المرجع السابق ص ٢٢١ .

في هذه اللوحة الشعرية تتجلى لنا براعة الاستهلال ليظهر لنا اللون الزاهي والمميز لهذه الأبيات ، والمسيطر على نفس الشاعر وهو (الخيال) ، وطيف ابنته الوسطى (سميرة) الذي جاءه زائرًا ، فاقتحم عليه منامه ، وأصبح الهاجس المسيطر على باله ، وشغل قلبه ، وهو في هذا الاستهلال يشوق السامع إلى تلك الصورة التعبيرية المجازية التي تجسد وبعمق مقدار اللهفة والحنين إلى تلك الصغيرة العزيزة إلى نفسه ، وذلك على سبيل (الاستعارة المكنية) التي يعتبر التخييل فيها جزءًا رئيسيًا [(١)]، فقال:

١- تـأَوَّبَ طَيفٌ مِنْ سَمِيرَة زَائرٌ ***** وَمَا الطَيْفُ إِلاَّ مَا تُرِيه الْخَوَاطِرُ

فقد شبه هذا الطيف بإنسان يأتي ويذهب ،يزور ويعود أحبابه ثم يرجع ، ولم يكتف بذلك بل نكّر لفظ (طيف) لتعظيمه ، وبيان مكانته العالية في نفس الشاعر .وقد خصَّ هذا الطيف بابنته (سميرة) ، وقصره عليها دون سواها حين قدَّم الجار والمجرور في قوله(من سميرة) ، وذلك لبيان مكانتها في نفسه ، وقد جاء القصر في الموقع اللائق حيث جاء لخدمة المعنى الذي يريد الشاعر التعبير عنه ببراعة ،فقد ملكه الشوق لابنته حتى تنفسها حوله في كل مكان ، حتى في منفاه. وعبر باسمها صراحةً (سميرة) لتميزها ، واختصاصها بتلك المشاعر الجياشة التي تملأ فؤاد أبيها لهفةً وشوقًا إليها . وهذا الطيف شجاعٌ استطاع أن يعبر تلك المسافات الشاسعة التي تحول بينه وبين ابنته سميرة ، فهو ثابت راسخ قوي دائم الزيارة رغم قلة مكثه ومُقامهِ ، فعبر باسم الفاعل (زائرٌ) وذلك لبيان حال ذلك الطيف وأنه زائر وليس مقيم بل يأتي ويذهب ، ولكن مع هذا فهو دائم

---

(١) يُعرف الجمهور الاستعارة المكنية بأنها : لفظ المشبه به المستعار في النفس للمشبه ، والمحذوف المدلول عليه بشيء من لوازمه . ويرى الخطيب القزويني أن الاستعارة بالكناية هي " التشبيه المضمر في النفس ، الذي لم يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ،ودلَّ عليه (أي على هذا التشبيه المضمر) بإثبات أمرمختص بالمشبه به للمشبه " . انظر بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي –ج ٣ – ص ١٣٢– ١٣٣ الطبعة السادسة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م–مكتبة الآداب – ميدان الأوبرا القاهرة .

الزيارة . وأراد الشاعر أن يوضح ماهية هذا الطيف فوصل بين الشطرين (للتوسط بين الكمالين) [١] ، وقد أكد حقيقة الطيف بالقصربطريق " النفي والاستثناء" في قوله (وما الطيف إلا ما تريه الخواطرُ)، أي ليس الطيف إلا نتيجة ما تنشغل به العقول في اليقظة ،فقصر الطيف على ماتنشغل به العقول وتدوام التفكير فيه ، " قصر موصوف على صفة" ،فأكد انشغاله بابنته في اليقظة وفي المنام ،وهو ما أراد الشاعر إيصاله للسامعين ، وتقريره في نفوسهم كما يحسه هو في نفسه ،فالقصر هنا جاء ليراعي حال المتكلم نفسه ، ولذا آثر القصر بطريق " النفي والاستثناء" لأنه أبلغ الطرق وأقواها، ولأنه كثر استعماله في المعنى الذي يحتاج إلى توكيد وتقرير ، ومراعاة لحال المتكلم[٢]. وقد جمَّل وزين البيت (بالتصريع) [٣] البديع بين (زائر) في نهاية الشطر الأول ،(والخواطر) في عجز البيت، وفي هذا دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام ،ويحسن التصريع كلما قلَّ حتى لا يتهم بالتكلف ، وهذا ما فعله البارودي .

وهذا البيت مقتبس من قول البحتري (٢٠٦هـ - ٢٨٤هـ/ ٨٢١م- ٨٩٧م) [٤]

---

(١) التوسط بين الكمالين هو :أن تتفق الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظًا ومعني ، أو معنى فقط . انظر معاني التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين –الجزء الثاني – ص ١٢٦ ،والإيضاح للخطيب القزويني ١٢٧/٣-١٢٨ –شرح وتعليق وتنقيح د/ محمد عبد المنعم خفاجى – الطبعة الثانية – مكتبة الكليات الأزهرية حسين محمد امبابي وأخوه محمد .

(٢) انظر دلائل الإعجاز للإمام غبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي القاهرة –ص ٣٣٢- وانظر معاني التراكيب للدكتور/ عبد الفتاح لاشين –الجزء الثاني –ص ٢١ .

(٣) التصريع هو: جعل العروض مقفاه تقفية الضرب ، والعروض هو: آخر المصراع الأول من البيت، والضرب هو: المصراع الثاني منه. انظر من بلاغة النظم العربي –دراسة تحليلية لمسائل علم البديع – د/ عبد العزيز عرفة – ج٤–ص١١٣- الطبعة الثانية ١٩٩٥م

(٤) انظر ديوان البحتري (الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري) – وهى قصيدة عمودية من بحر الوافر –عُنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل المرصفي – المجلد الأول – الطبعة الثالثة – دار المعارف ... .. ص ٩٨٠ .

قال يمدح أبا المُعمَّر الهيثم بن عبد الله :

أَمِنْكَ تَـأَوُّبُ الْطَّيْفِ الطَّرُوبِ ***** حَبِيبٌ جَاءَ يُهْدَى مِن حَبِيبِ
تَخَطّى رِقْبَةَ الوَاشِينَ وهْنًا ***** وَبُعدَ مَسافَةُ الخَرْقِ المَجُوبِ

فما قاله البارودي في الطيف أخذه من سابقه (البحتري) ، فقد ذكر البحتري أن طيف الحبيب والصديق الغالي زاره ، وعجب كيف زاره ودونه صحراء شاسعة مترامية الأطراف ، وعيون الواشين تلاحقه ، فكل هذه المعاني أخذها البارودي وضمنها قصيدته التي معنا ، حتى أن أول كلمة في قصيدة البارودي مأخوذة من قول البحتري (تأوب طيف)،ولكن البارودي لم يبين أثر الطيف بالمشاعر والأحاسيس ، فلم يدخلنا قلبه لنرى مشاعره التي أثارها الطيف ،ولم يفصل ويوضح ما فعله الطيف بوجدانه وانفعالاته ، واكتفى ببيان شجاعة الطيف وقوته ، وتحمله الأهوال حتى يلتقي بأحبابه .

*<u>وفي البيت الثاني :-</u> ينتقل الشاعر بنا في تناسق وانسجام لبيان وتأكيد قوة هذا الطيف وشجاعته في طي المسافات والمخاطرة بالسير ليلاً في شدة الظلماء، فقال : طَوَى سُدفَةَ الظَلْماءِ ، واللَّيلُ ضَارِبُ **** بِأَرْوَاقِهِ ، والنَجْمُ بالأُفق حَائرُ فكنى عن " شدة الظلام" بقوله (طوى سدفة الظلماء) ، ثم جاء ب(الواو) التي للحال في قوله(والليل ضارب بأرواقه) ، (والنجم بالأُفق حائرُ) للدلالة على انفعال الكون مع الطيف،وتصوير المخاطر التي تحيط به،فبين حال الليل وعموم ظلمته على الكون، وحال النجم وحيرته في هذا الظلام الدامس،وكل هذا تأكيد ونصوير لشجاعة الطيف وجرأته، ولا تخفي المناسبة التي تجمعهم ، فقد جمعهم مكان واحد ، ولون السواد الذي غطى كل شيء ،حتى النجم الذي يشع منه الضياء متخبطًا حائرًا لا يهتدي إلى طريق لتكاثف الظلمة وإحاطتها بالمكان .

وقدَّم " الليل" لأنه محل اهتمام الشاعر ،ومكمن الخوف والوحشة، والمقام الذي يتحدث عنه، والذي يظهر من خلاله شجاعة الطيف ، وإصراره على الوصول للشاعر في منفاه ، واستعمل اسم الفاعل " ضارب" للدلالة على ثبات

الظلمة واستقرارها، ومع ذلك يخاطر الطيف ويقطعها ، فقوله (والليل ضارب بأرواقه) كناية عن عموم الظلام للكون ودوامه مع الإحاطة والتمكن .

ويأتي بعد ذلك بديع المجاز والإيجاز في الصورة التعبيرية الرائعة التي تجسد تراكم الظلمات وشدتها حتى أن النجم لا يهتدي في هذه الظلمة إلى طريق ، أو سبيل ، أو مكان يظهر ويستقر فيه ، في قوله" والنجم بالأفق حائر" فشبه النجم في حيرته ، وتخبطه ، وعدم اهتدائه بالإنسان الحائر المضطرب الذي يتخبط ، ولا يدري ما يفعله ، ولا أين الطريق الذي يسلكه لشدة الظلمة ، وغمرها المكان ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحيرة على سبيل الاستعارة المكنية .فعبرت الاستعارة المكنية عن هذه الحالة خير تعبير ، وإن كان كل ذلك

دليلاً قويًا على قوة الطيف الذي لم يعبأ بمخاطر الظلام ، وتحمل هذا بشجاعة وحب ، فسر بلاغة الاستعارة هنا التشخيص الذي يأخذ اللب ، ويطوف بالعقل في تشخيص رائع لحركة الكون حوله، وتفاعل الطبيعة مع مشاعره ، وأحاسيسه ، فالبيت كله في غاية الروعة ، فكأن الطيف لف الظلام ، كأنه شيء يطوى ، فالظلام الذي اسدل وغطى كل شيء جاء هذا الطيف ليلفه ، ويطويه ، ويسير به إلى البارودي في سلاسة ، وشجاعة، ثم أكمل الصورة بالليل ، وجسده في صورة إنسان يسدل الستائر ليخفي ما وراءه ، وقد اخترق الطيف كل هذا في شجاعة ليصل إلى مراده ، ويلتقي بالبارودي في منفاه ، وقد أكد الصورة بحيرة النجم ، وعدم اهتدائه إلى الطريق بسبب شدة الظلام وعمومه على المكان ، فرسم لنا الشاعر صورة حية ،كلها حركة،عبر عنها ببلاغة رائعة ، وإيجاز بديع .

وقد زيَّن وجمَّل الأسلوب البديع التناسب والتناسق في جمعه بين (الظلمة ، والليل) ، وقد أكد جمال الصورة التعبيرية المليئة بالحركة ، والخيال البديع بجمعه بين { الليل بما يدل عليه من شدة الظلام ، والنجم بما يرسمه في ذهن المتلقي من صورة الاهتداء والإنارة ، والضد يُظهر حسنه الضد ، فكان " الطباق " خير تعبير عن هذه الصورة البديعية الرائعة . وجاء تقديم المسند إليه (النجم)

للتشويق إلى ذكر الخبر (حائر) ، ولإبراز الدليل على شجاعة الطيف . وفي تقديم الجار والمجرور (بالأفق) على الخبر(حائر) قصر جاء في موضعه لتأكيد حيرة وتخبط النجم في مكان إقامته التي من المفترض أن يكون مستقرًا متمكنًا فيها .

وقد يتوهم متوهم أن في قوله (والنجم بالأفق) " حشو غير مفسد "، فالنجم لا يكون إلا في الأفق ، فيكون في ذكر لفظ (الأفق) {حشو غير مفسد للمعنى} ، والأمر غير ذلك ، لأن الحكم على زيادة كلمة من الكلمات ، وخلوها من الفائدة مرتبط بالمقام والحال التي قيلت فيها الكلمة ، فقد ذكر لفظ الأفق في شيء يعظم مناله ، ويعز الوصول إليه ، فأتى بهذه الكلمة على جهة الإطناب دلالة على نيله ، والحصول عليه ، وللتسجيل على من ينكر خطور الطيف في هذا الظلام ، فقد أراد المبالغة والتهويل في بيان شجاعة الطيف فكان تعبيره خير دليل .

* <u>وفي البيت الثالث :-</u> يتعجب الشاعر من قوة هذا الطيف الذي مزَّق استار الليل على الرغم من بُعد المسافات، ووجوده في جزيرة سرنديب التي تقع على المحيط الهندي الممتلئ الواسع العظيم الممتد ، والذي جعل هذا الشوق بتلك القوة هو حبه ، وشوقه الشديد لابنته .

فقال: فَيالكَ مِنْ طَيفٍ أَلمَّ وَدونَهُ *** مُحيطٌ منَ البحرِ الْجنُوبِيِّ زَاخِرُ**

فعبر" بالفاء " للدلالة على الترتيب والتعقيب ،وسرعة حلول الطيف ، و"يا" التي لنداء البعيد ،لبيان شجاعته وسرعته في طي المسافات ، ولتعظيم ذلك الطيف

ولذا نكَّر لفظ (طيف) للتعظيم والتفخيم من شأنه، وقدم الجار والمجرور (من طيف) لأنه محل الاهتمام ، وعبر بالفعل الماضي (أَلمَّ) بمعنى " نزل " ، للدلالة على تحقق الوقوع ليدل بالفعل الماضي على مجئ الطيف في شجاعة وإقدام على الرغم من الموانع الكثيرة التي تبعده عنه ، وتحيط به .

وقدم الجار والمجرور (من البحر) لأنه محل الاهتمام ، وشاهد دليل تخطيه المانع الطبيعي الذي يبعده عن ابنته .

وجاء اسم الفاعل (زاخر) ليدل على ثبات ودوام المانع الطبيعي (وهو البحر بكل ما يحويه).

وفي البيت الرابع :- عبر بالفعل الماضي (تخطى) للدلالة على تحقق وصوله إليه رغم الصعاب في قوة وشجاعة ، وهو على قوته وشدته نزل به لفترة قصيرة ثم لم يمكث واختفى . وقد جاءه في لهفة وشوق وحب شديد ، فقال:

تَخَطَّى إلىَ الأَرضَ وَجْدًا ،ومَا لهُ ***** سِوىَ نزَوَاتِ الشَوقِ حادٍ وزَاجرُ

فجاء لفظ " وجدًا " (للإحتراس) [١] حتى لا يظن أنه جاء مكرهًا ، بل جاء حبًّا وشوقًا ، وقدم الجار والمجرور (إلى الأرض) للدلالة على سرعة وصوله إلى ذلك المكان البعيد ، وعبوره ذلك المانع المائي الضخم الذي يفصل بينهما .

وجاء القصر بطريق (النفي والاستثناء) في قوله (وما له سوى نزوات الشوق حاد وزاجر) في موقعه اللائق به ، فقد قصر الطيف على نزوات الشوق ، والسير به سريعًا ،وسوقه إلى أحبته بكل الوسائل ، قصر موصوف على صفة" ،فعبر بطريق النفي والاستثناء ليؤكد شجاعة الطيف ، وشدة شوقه ولهفته إليه ،وهو ما أراد الشاعر إيصاله للسامعين ، وتقريره في نفوسهم كما يحسه هو في نفسه ،فالقصر هنا جاء ليراعي حال المتكلم نفسه ، ولذا آثر القصر بطريق " النفي والاستثناء" لأنه أبلغ الطرق وأقواها، ولأنه كثر استعماله في المعنى الذي يحتاج إلى توكيد وتقرير ومراعاة لحال المتكلم .

وجاءت صيغة المبالغة (زاجر) على وزن (فاعل) في موقعها المرجو منها . وبين (زاخر) في البيت الثالث ، و(زاجر) في البيت الرابع " جناس مصحف" [٢]

---

(١) الإحتراس: هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الإيهام ، وسمي بالإحتراس : لأنه يحفظ المعنى من توهم غير المراد . انظر معاني التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين ج٢ – ص ١٩٦ – ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .

(٢) الجناس المصحف هو: ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان في النقط . انظر الألوان البديعية د/ حمزة الدمرداش ص١٢٥

لاختلافهما في النقط ، و" جناس مضارع " من حيث المخرج [١] ، ولا شك أن الجناس من الحُلى اللفظية التي تطرب الآذان ، وتشد الأسماع ، فتجعل النفس تقبل على السماع ، فيتمكن المعنى ويستقر .

وفي هذا البيت صورة بيانية رائعة ، حيث شبه الشوق والمحبة والحنين بإنسان يحث الطيف على المسير للقاء أحبابه ، ويهون عليه مشاق الطريق تارة بالغناء له ، وتارة بزجره وتعنيفه ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو قوله (حادٍ وزَاجرُ) على سبيل "الاستعارة المكنية " ، وسر جمالها " التشخيص "، حيث جعلت من الشوق والحنين شخص من لحم ودم ، يغني ، ويزجر ويعنف ، فجعل الصورة مشاهدة مرئية ، تنبض بالحركة والحيوية .

* وفي البيت الخامس : - يتمنى الشاعر لو أن الطيف أقام معه الليل كله حتى ولو طالت عليه ظلماته حتى يشفي قلبه ، وتشفى نفسه بهذا الطيف العزيز .

فقال : أَلَمَّ ، ولَمْ يَلْبَثْ،وسَارَ، وَلَيتَهُ *** أَقَامَ ، ولو طَالتْ عَلَىَّ الدَياجِرُ**

فيستمر بالتعبير بالماضي ليؤكد تحقق وقوع ومجيء الطيف ، وزيارته له رغم قصر المكث ، وعطف الجمل على بعض بالواو في قوله (ألمَّ- ولم يلبث – وسار...) للتوسط بين الكمالين ، وقدم "عليّ " لأنه محل وموضع الاهتمام، وليؤكد ويبين مقدار الألم واللهفة والشوق لهذا الطيف في قوله(ولو طالت عليَّ الدياجر) ،فهو يتمنى مكث الطيف وإقامته ، حتى ولو طال الليل ، وتكالبت عليه الظلمات ، فهو المعْنيُّ بهذا الطيف وليس غيره .

---

(١) الجناس المضارع هو: أن يختلف اللفظان المتجانسان في حرفين متقاربين في المخرج ، وهذا الاختلاف إما أن يكون في أول الكلمة ، أو في وسطها ، أو في آخرها . انظر الألوان البديعية د/ حمزة الدمرداش ط ٣ – ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م – دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ص ١٣٠

وجاء" طباق السلب" في قوله(لم يلبث) و(أقام) ليؤكد عدم مكثه ، ورحيله سريعًا والطباق هنا استدعاه المقام ، واقتضاه الحال، فهو تعبير صادق عن حالة الشاعر النفسيه ، وما يعانيه من مرارة الفراق .

وقد عبر بالأسلوب الإنشائي الطلبي بطريق "التمني "في قوله (وليته أقام ولو طالت عليَّ الدياجرُ)، لأنه المناسب لحالة الشاعر النفسيه ، وانفعالاته الداخلية ، وذلك الشعور الذي لا يشعر به سوى أب حرم من أبنائه ، واشتاقت نفسه لرؤيتهم، فلا يجد وسيلة غير التخيل ، فيصوره لنفسه على أنه حقيقة واقعة حتى يستطيع أن يعايش الواقع المرير ،ويجد لنفسه السلوى والصبر على البعد والحرمان ، ولذا شخص الطيف وجعله من دم ولحم يأتي ويذهب ويزور ويعود ، فشبه الطيف بإنسان عزيز على النفس يتمنى مكثه وأقامته معه ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو التزاور والإقامة ، وكل ما يفعله الإنسان الحر من واجبات الصلة والتراحم والتزاور ، على سبيل" الاستعارة المكنية " .

*<u>وفي البيت السادس :-</u> يتعجب الشاعر من هذا الطيف القوي الذي خاطر بنفسه ، وتحمل مخاوف الظلام ، وبُعد المسافات ، على الرغم من أن صاحبة هذا الطيف رقيقة ، صغيرة السن، لا تقوى على المخاطرة ، فقال :

تَحملَ أَهْوَالَ الظَلامِ مُخَاطِرًا *** وَعهدِي بِمَنْ جَادَت به لا تُخَاطِرُ**

فهو يمضي بصيغة الماضي في (تحمل) ، ليؤكد تحقق ورود الطيف وشجاعته ، وفي هذا تجسيد لخيال الشاعر وكأنه محسوس ملموس ، قويٌ شجاع ،يخاطر من أجل أحبته . وقد عبر باسم الفاعل (مخاطرًا) على وزن مفاعل للدلالة على الدوام ، والثبوت ، واستمرار المخاطرة ، والمفاعلة ، والمشاركة ، وإقحام نفسه في المهالك من أجل زيارة سريعة لا تكاد تدوم ،ومع ذلك يكررها رغم تلك الأهوال .

وقد كنى عن ابنته سميرة بقوله (بمن جادت بـه) ، وعرَّفها بالاسم الموصول في قوله (بمن جادت)للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، فمن جادت بالطيف صغيرة ، لا تقوى على المخاطر ، فأوحت الصلة بأن الخبر (عدم المخاطرة) لأنها لا تقوى عليه لصغرها . وبين (مخاطرًا) في نهاية الشطر الأول ، و(لاتُخاطر) في نهاية البيت (طباق سلب) أكد مراد الشاعر وهو بيان شجاعة الطيف رغم صغر سن صاحبته ، ووضح الصورة ، والطباق هنا استدعاه المقام ، واقتضاه الحال ، وبينهما أيضًا (جناس اشتقاق) [١] أحدث جمالاً صوتيًا ، بالإضافة إلى تأكيد المعنى وتوضيحه .

وببينهما أيضًا (رد العجز على الصدر) [٢]، ولا يخفى ما فيه من موسيقى لفظية تأخذ الألباب وتؤكد المعنى ، وتجعله يستقر في نفس المتلقي . وقد جاءت الكناية مؤكدة للمعنى ومصحوبة بالدليل القاطع على جرأة الطيف وشجاعته في قوله(تحمل أهوال الظلام مخاطرًا) ، و جمع الأهوال ، وإضافتها إلى " الظلام" لتأكيدها ،وتقريرها ، والوصول بها إلى أعلى درجات المخاطر والأهوال .

---

(١) جناس الاشتقاق هو: أن يتفق اللفظان في أصل الحروف أصل المعنى ، وذلك بأن تتشابه الكلمتان في الحروف الأصول ، ويجمعهما أصل لغوي واحد ، ويسميه الرماني (ت ٣٨٤هـ) جناس المناسبة ، وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل لغوي واحد . انظر النكت للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمد خلف الله – و محمد زغلول سلام – دار المعارف بمصر – ص٩٢ . ، والألوان البديعية د/ حمزة الدمرداش ص ١٣٥.

(٢) رد العجز على الصدر في الشعر : هو أن تكون الكلمتان مكررتين الأولى تقع في نهاية الشطر الأول ، والثانية تقع في آخر البيت . انظر الألوان البديعية د/ حمزة الدمرداش ص١٦٤ .

اللوحة الثانية : - بعنوان (صفات ابنته وأترابها)

١- خُماسيَّةُ، لَمْ تَدْرِ ما الْليلُ والسُرى***** وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْ صَفْحَتيها السَتَائِرُ[١]

٢- عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ تَوَالِيْنَ حَوْلَهَا ***** كَمَا دَارَ بِالْبَدْرِ النُجُومُ الزَوَاهِرُ[٢]

٣- غَوَافِلُ لاَ يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ***** وَلاَ هُنَّ بِالْخَطْبِ الْمُلِمِّ شَوَاعِرُ

٤- تَعَوَّدْنَ خَفْضَ الْعَيْشِ في ظِلِّ وَالِدٍ ***** رَحِيمٍ وَبَيْتٍ شَيَّدَتْهُ العَنَاصِرُ[٣]

٥- فَهُنَّ كَعُنقُودِ الثُرَيَّا، تَأَلَقَتْ ***** كَوَاكِبُهَ في الأُفْقِ ، فَهِيَ سَوافِرُ[٤]

٦ - تُمَثُلُها الذِكْرَى لِعَيْنِي ، كَأَنَّني ***** إِلَيْهَا عَلَى بُعْدٍ مِن الأَرْضِ نَاظِرُ

٧ - فَطَوراً إِخَالُ الظَّنُ حَقًّا ، وَتَارةً ***** أَهِيمُ ، فَتَغْشَى مُقْلَتَيَّ السَّمادِرُ[٥]

---

(١)خماسية : أي : طولها خمسة أشبار، فالخماسي من الغلمان ما طوله خمسة أشبار ، والخماسية من الفتيات التي بلغت خمس سنوات .انظر المعجم الوسيط الشبكة العنكبوتية . والمراد أنها طفلة صغيرة السن .

ـ السُرَى: السير ليلًا . انظر المعجم الوجيز ص ٣٠٩ . - لم تنحسر: لم تنكشف . انظر المعجم الوجيز ص ١٥٠ – صفحتيها: جانبا وجهها، فصفحة الشئ : وجهه وجانبه ، وصفحة الورقة أحد وجهيها . انظر المعجم الوجيز ص ٣٦٤- الستائر جمع ستارة والمراد تنعمها وصونها .

(٢) عقيلة : كريمة الحي ، وعقيلة الشيء : أكرمه. وجمعها عقائل . انظر المعجم الوجيز ص ٤٢٩- الأتراب : جمع ترب : وهو من في مثل السن ، وأكثر ما يستعمل في المؤنث . انظر المعجم الوجيز ص ٧٣.

(٣) خفض العيش : خفضًا :اتسع وتيسر ، وهو:سعة المعيشة وراحتها . – شيدته: رفعته ، وأعلت قدره .انظر المعجم الوجيز ص ٣٥٦ – العناصر : المناقب والمفاخر ،والأصول الكريمة ، فالعنصر : الأصل والحسب .انظر المعجم الوجيزص٤٣٧

(٤) الثريا: مجموعة من النجوم ، والعرب تشبه الثريا بعنقود العنب . انظر المعجم الوجيز ص ٨٣ – تألقت : لمعت وتلألأت. انظر المعجم الوجيز ص ٢٣- سوافر: جمع سافر أي: المضيئة المشرقة . انظر المعجم الوجيز ص ٣١٢.

(٥) إخال: أظن وأحسب. انظر لسان العرب –الجزء الخامس –حرف الخاء- الشبكة العنكبوتية –أهيم: أتحير . من هام فلان هيمانًا: خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتجه . انظر المعجم الوجيز ص ٦٥٧ – تغشى مقلتي : تصيب عيني . – السمادر : جمع (سمدور) وهو : غشاوة العين ، وضعف البصر ، وهو ما يتراءى للناظر كأنه الذباب الطائر . انظر المعجم الوسيط – الشبكة العنكبوتية .

٨- فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي ***** وَيَا قُرْبَ مَا الْتَفَتْ عَلَيْهِ الْضَّمَائِرُ

٩- فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ***** فَكُلِ امْرِئٍ يَوْمًا إلى اللهِ صَائِرُ

في هذه اللوحة يتغنى الشاعر بصفات ابنته ومن في مثل سنها ممن ولدوا وتربوا معها ، وقد أهاج الشوق قلبه وعقله ، فمضى يشفق على هذه الابنة الصغيرة السن ، والتي لا يتعدى طولها خمسة أشبار ، وهي لا تعرف شيئًا عن عذابات الليل وأشواقه، وهي الصغيرة التي لم ينكشف بعد عن وجنتيها ستائر الخجل، وهكذا يسترسل الشاعر في هذه الأبيات ويطنب بطريق التفصيل بعد الإجمال، فبعد ما أجمل في الأبيات السابقة كونها لا تخاطر لصغرسنها ، فصَّل وأبان، وعدد صفاتها في هذه اللوحة التي توضح مقدار تعلقه بها، وشوقه إليها .
فقال في البيت الأول :

خُماسيَّةُ،لَمْ تَدْرِ ما اللّيلُ والسُرى ***** وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْ صَفْحَتيها السَتَائِرُ

(خماسية) ، أي : هي خماسية ، فحذف المسند إليه "للاحتراز عن العبث " لتقدم ذكرها في الأبيات السابقة ،فهي الحاضرة التي لا تغيب عن ذهنه ، ولا عن مخيلته . وقد أكد صغرها ، وعدم إدراكها للأمور بقوله (لم تدر ما الليل والسرى) ، ففي جملة (لم تدر ما الليل والسرى) " كناية " عن صغر سنها ، وعدم إدراكها للمخاطر التي تحيط بها ، "فهي كناية عن صفة" ،وعطف (السرى) على (الليل) للتأكيد على عدم معرفتها بالليل وعذاباته ، ووحشته، فالإطناب في قوله (الليل والسرى) وُظِفَ لخدمة الغرض ، والحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، فهما لفظان مترادفان ، من قبيل عطف " الخاص على العام " ،وهو كناية عن (الخوف والوحشة) ، فلون الظلمة ، والسواد يوحي بالانقباض والخوف ، وهذا يوضح ، ويدلل على براعة البارودي في رسم لوحاته الشعرية بألفاظ موحية ، توحي بالحركة ، والسكون ، والانفعال ، والشوق ، كل هذا في آن واحد ، وقد أدت الكناية المعنى مصحوبًا بالدليل ، وجسدت المعنى بصورة محسوسة ، فزادت

المعنى بهاءًا ووضوحًا ، كما أن في الكناية مبالغة في الوصف ، هذا إلى جانب الإيجاز في العبارة ووصل بين قوله (ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر) وما قبلها (لم تدر ما الليل والسرى) للتوسط بين الكمالين ، لاشتراكهما في الخبرية ، ووجود المناسبة بينهما ، فالحديث عن الصغيرة ، وأوصافها ، فوصل بين الجملتين للتأكيد على صغرها ، وعدم إدراكها الخطر المحيط بها .

وفي قوله (لم تنحسر عن وجنتيها الستائر) كناية عن " خجلها ، وحيائها ، وعفتها ، وعدم معرفته بالحياة لصغر سنها . وفيها أيضًا " مجاز مرسل علاقته (الجزئية) ، حيث ذكر الجزء وهو (الوجنة) وأراد الكل وهو (الوجه) ، وخصَّ الوجنتين بالذات ، لأنهما من أبرز ما يظهر جمال وجه المرأة وفتنتها ، وهي ما زالت بعد صغيرة السن ،وعليهما تظهرعلامات الخجل والحياء . وقدم الجار والمجرور في قوله (عن صفحتيها الستائر) للاهتمام بالمتقدم ، وللتأكيد على عدم تجربتها وخجلها ، والبيت كله " كناية " عن صغر سنها .

وفي البيت الثاني : يستمر الشاعر في سرد أوصاف ابنته بقوله :

عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ تَوَالِيْنَ حَوْلَهَا ***** كَمَا دَارَ بِالْبَدْرِ الْنُجُومُ الْزَوَاهِرُ

(عقيلة أتراب) أي : " هي عقيلة أتراب" ، فحذف المسند إليه (هي) للاحتراز عن العبث لأن المقام لها ، ولتقدم ذكرها في الأبيات السابقة ، وللتعجيل بذكر صفاتها المحببة إلى نفس الشاعر ، بذكر مآثرها ، وبكونها من الأشراف التي تفوقت على من في مثل سنها لحسبها ، وشرفها ، ومقامها ، فهي كناية عن المقام الرفيع ، والمكانة العالية ، وكرم الأصل . وقد شبه ابنته وسط أترابها ، وأقرانها بالبدر تدور حوله النجوم ، وهو من قبيل التشبيه التمثيلي ، حيث شبه هيئة ابنته وسط أقرانها يلتففن ، ويدرن حولها ، بهيئة البدر وقد دارت والتفت حوله النجوم المتلألئة المشرقة ، للدلالة على المكانة الرفيعة العالية ، والزهو ، والإشراق ، والضياء ، والجمال . وقدم الجار والمجرور (بالبدر) لأنه محل الاهتمام ، وللتعجيل بذكر وصفها والتأكيد عليه .

وفي قوله (النجوم الزواهر) " إيغال " [١]، فقوله " الزواهر " زيادة جاءت للمبالغة في التشبيه ، لأن قوله (كما دارت بالبدر النجوم) واف بالمعنى ، وبالغرض ، ولكنه لم يكتف بجعل المشبه به (النجوم) ، بل زاد فجعلها " زاهرة " لما في ذلك من زيادة الانكشاف ، والوضوح ، والإشراق . وقد جمع بين (البدر والنجوم) لمراعاة النظير[٢]، فهما نجمان سماويان نورانيان يضيئان بقدرة الله ، وبنظام معلوم ، ومكانهما السماء فهما متجاوران . ولا يخفي ما في ذلك من البلاغة والإبداع .

*<u>وفي البيت الثالث</u> :يستمر الشاعر في سرد صفاتها هي وأترابها ، وبيان غفلتهن ، وعدم معرفتهن بما ينتظرهن من ضيق العيش ، والمخاطر التي تحيط بهن ، فيقول : **غَوَافِلُ لاَ يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ***** وَلاَ هُنَّ بِالْخَطْبِ الْمُلِمِّ شَوَاعِرُ**

فحذف المسند إليه (هن) في قوله (غوافل) أي: " هن غوافل " للاحتراز عن العبث ، ولدلالة السياق عليه . وقد عبر بصيغة المبالغة (غوافل) على وزن (فواعل) للمبالغة في غفلتهن ، وجهلهن بتقلبات الأيام . وفصل جملة (غوافل) عما بعدها (لاَ يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ) "لشبه كمال الاتصال"،حيث جاءت الجملة الثانية جواب عن سؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى ، أي : لماذا هن غوافل ؟ فيكون الجواب بسبب ما هن فيه من نعيم ،وهي " كناية عن نشأتهن في منشأ عز وترف ونعيم . وعطف الشطر الثاني عن الأول (للتوسط بين الكمالين) لاشتراكهما في الخبرية، ووجود المناسبة بينهما. وقدَّم الجار والمجرور بالخطب الملم) على ما بعدها لأنه محل الاهتمام ، وللإسراع لبيان الخطر الداهم عليهن .

---

(١) الإيغال هو: ختم الكلام – نثرًا أو شعرًا – بما يفيد فائدة يتم المعنى بدونها . انظر معاني التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين – ج ٢ – ص ١٩٣

(٢) ويسمى التناسب ، والتوافق ، والائتلاف ، والمؤاخاة ، وهو أن يجمع في الكلام بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة لا بالتضاد . انظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني – تعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي – مطبعة صبيح بالقاهرة ١٩٥٠م –ج ٦ / ٢٠

وفي قوله (ولا هن بالخطب الملم شواعر) كناية عن الطفولة والبراءة والوداعة .

وقد جاءت صيغة المبالغة (شواعر) على وزن (فواعل) للمبالغة في وداعتهن وعدم شعورهن بما ينتظرهن من مجريات الأيام . وبين قوله (غوافل) في الشطر الأول ، و(شواعر) في الشطر الثاني ، طباق ، أكد المعني ، وزاد البيان ووضحه ، وجسد الصورة ، وجعلها مشاهدة مرئية .

وفي البيت الرابع : يستمر الشاعر في بيان وتفصيل صفات ابنته الصغيرة غير المجربة مع أترابها ، اللاتي تعودن المعيشة الهانئة الرغدة ، مع والدٍ كريم حنون (ويقصد به نفسه) فيقول :

تَعَوَّدْنَ خَفْضَ الْعَيْشِ فِي ظلِّ وَالِدٍ ***** رَحِيمٍ وَبَيْتٍ شَيَّدَتْهُ العَنَاصِرُ

وكأنه جرد من نفسه شخصًا آخر ، وأخذ يعدد أوصافه النبيلة ، ويبين مآثره وكرم أصله ، فبين مفتخرًا البيت الذي جمع بينه ، وبين أبنائه ، ذلك البيت الذي رفعت عناصره ، وأعلت قدره المفاخر ، والأصول الكريمة ، من حب ، ومناقب يفخر بها كل من تربى في هذا البيت . فقوله(في ظل والدٍ رحيم) كناية عن الشاعر ، وقد وصف نفسه بالرحمة للدلالة على (حنوه، وعطفه وشفقته بأبنائه)، ولذا جاء لفظ (والدٍ) نكرة للتعظيم والتفخيم من شأنه، كما نكر لفظ(بيتٍ) في قوله(وبيتٍ شيدته العناصر) للتعظيم أيضًا والتفخيم من شأن ذلك البيت .

وجملة (بيت شيدته العناصر) " كناية " عن المآثر ، والمناقب ، والعظمة ، والكرم ، والأصل الطيب . وفي إسناد " التشييد" إلى " العناصر" مجاز عقلي علاقته (السببية) ، فالعناصر لا تشيد ، وإنما الذي يبني ويشيد هو العامل ، والذي يرفع قدر هذا البيت ساكنوه ، بمآثرهم ، ومفاخرهم ، وأصولهم الكريمة ، وصفاتهم النبيلة ، فالعناصر سبب في الافتخار ، والسمعة الطيبة ،

وقد عطف البيت الخامس على ما قبله بالفاء في قوله :

فَهُنَّ كَعُنقُودِ الثُريَّا، تَأَلَقَتْ ***** كَوَاكِبُهَ فِي الأُفْقِ ، فَهِيَ سَوافِرُ

للدلالة على السرعة في بيان وتأكيد صفات ابنته وأترابها سريعًا ، وكأنه يريد أن يسبق الزمن في سرد صفات الحسن ولا يمهل نفسه وقتًا في بيان تلك الصفات ، وتأكيد حسنهن ، فشعوره جارف ، متلاحق ، فهو متشوق لبيان خصالها لأنه لا يعرف الشوق غير مكابده ،فيشتد شوق الشاعر ، ويتملكه الحنين إلي ابنته، حتى يصورها هي وأترابها بالكواكب في الإشراق والجمال ، فرسم لنا صورة تعبيرية جميلة ، حيث شبه هيئة هؤلاء الصغيرات في إشراقهن ، وتلألئهن ، وتماسكهن بهيئة عنقود متماثل من الكواكب المشرقة ، المتلألئة في الأفق يماثل ويحاكي عنقود العنب في جماله ، وبهائه، وتساوي حباته، وقد لمعت وأضاءت حباته فعم الضياء على كل من حولها ، فجمعهما الضياء ، والإشراق واللمعان ، وهو من قبيل (التشبيه التمثيلي) [1] ، وجاء هذا البيت ليحاكي قول العرب :

وَقَدْ لاَحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأَى ***** كَعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حِينَ نَوَّارَا .

ففيه " اقتباس " جاء في مكانه وموضعه لخدمة المعنى الذي يريد الشاعر إبرازه ، وفي هذا تأكيد على تأثر البارودي بشعر القدماء ، وأخذ أكثر معانيه من شعرهم ، فكثيرًا ما كانت العرب تشبه الثريا بعنقود العنب في الإشراق ، والضياء ، واللمعان وفي الشكل ، وقد أخذ البارودي هذا المعنى ووظفه لخدمة الغرض الذي يريد إبرازه.

---

(١) التشبيه التمثيلي عند الخطيب القزويني وجمهور البلاغيين هو : ما كان وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور سواء أكان حسيًا أم عقليًا ، ومن بديع المركب الحسي :وجه الشبه الذي يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات ، أي أن وجه الشبه هو الهيئة التي تقع عليها الحركة من الاستدارة والاستقامة وغيرها ، ويعتبر فيها تركيبه . انظر الإيضاح للخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) –ج ٤– ص ٥١، ٥٢وبالهامش ، شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجى – الطبعة الثانية – مكتبة الكليات الأزهرية –الأزهر – القاهرة .

وجاء لفظ (سوافر) على وزن (فواعل) للمبالغة في الضياء والإشـــراق . وقد عرَّف ابنته وأترابها بضمير الغائب (فهن – فهي) لأن المقام للغيبة، فهـــو يتذكر ما كان، ومع ذلك فهن وإن كن غائبات بأجسادهن ، فهن موجودات فـــي ضمير الشاعر وقلبه لا يغبن عنه ، وللتعظيم والتفخيم من شأنهن ، وللإيماء إلى علو درجتهن عنده .وجاءت جملة (فهي سوافر) "إطناب بـــالتتميم " [1] ، فقـــد ساعد التتميم على على زيادة المبالغة في التشبيه ، كما أدى إلى إيضاح الصورة، وإبراز جمالها في النص ، فقد أراد المبالغة في مـــدحهم ووصـــفهم بالإشـــراق والضياء .

وفي قوله (في الأفق) إطناب أيضًا، فمعروف أن الكواكب لا تكون إلا فـــي الأفق ، فذكرها للتأكيد على حصـــول الضـــياء ، وإحاطتـــه وعمومـــه المكـــان ،وللمبالغة في الإشراق . وهكذا نجد الشاعر يبالغ عن طريق الإطناب، والتشـــبيه ،والفنون البلاغية ، في وصف ابنته ، وما لها من طبيعة حساســـة مرهفـــة لا تقوى على المخاطر لصغر سنها ، وهي المنعمة المترفة في بيتها ، ذات الأصول الكريمة ، والمفاخر ، والمآثر .

وفي البيت السادس: يُعلن الشاعر عن تعلقه الشديد بابنته ، وشوقه الشديد إليها ، حتى أن ذكرى ابنته جعلت عيناه تطوي الأرض ،والمســـافات ، والـــزمن طيًّا، وكأنها حضرت ، ووقفت أمامه ، يراها عن قرب رأي العين ، فقال :

تُمَثِّلُها الذِكْرىَ لِعَيْني ، كَأَنَّني *** إِلَيْهَا عَلىَ بُعْدٍ مِن الأَرْضِ نَاظِرُ**

فقد شبه رؤيتها في الخيال برؤيتها في الحقيقة ، رأي العين على بُعد مـــا بينهما من مسافات ، فإذا كانت الأجساد متباعدة شديدة التباعد ، فالقلوب متقاربة أشد التقارب ،ف "كأن " هنا للتقريب ، وخصَّ العين في قوله (لعيني) ، دلالـــة على أنه لا يرى سوى طيفها ، ولا يتذكر إلا صـــورتها ، فهـــي تمـــلأ عينيـــه ،

(١) التتميم هو : أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة ، وإذا طرحت مـــن الكـــلام نقص . انظر معاني التراكيب – د/ عبد الفتاح لاشين –ج٢– ص ١٩٨ .

ووجدانه ، وعبر بالفعل المضارع (تمثلها) للدلالة على التجدد والحدوث ، واستحضارًا لتلك الحالة من الشجن والحزن لذكرى ابنته . وقدم الجار المجرور (إليها) في قوله (إليها على بُعد من الأرض ناظر) لإفادة القصر ، فقد قصر النظر عليها ، وإليها ، فهي المخصوصة بالتذكر والتفكير ، ولذا عبر باسم الفاعل (ناظر) للدلالة على ديمومة النظر ، والثبوت ، والدوام لصورتها في عينيه ، وفي قوله (على بعد من في الأرض) "كناية "عن بُعد المسافات بينهما .

وفي البيت السابع : يصور الشاعر حالته مع الأوهام والظنون التي تمكنت من نفسه ، وتكاد نفسه أن تتشقق من تلك الرؤى ، فتارة تُصور له على أنها حقيقة ، وواقع يراه ، وتارة يتحير مما يراه فتقع على عينيه غشاوة ، فلا يستطيع أن يتيقن شيئًا ، فقال :

فَطَورًا إِخَالُ الظَّنُ حَقًا ، وَتَارةً ***** أَهِيمُ ، فَتَغْشَى مُقْلَتَىَّ السَّمادِرُ

فوظف (صحة التقسيم) في هذا البيت لبيان ما عليه من اضطراب وحيرة ، حيث ذكر جميع أنواع الظنون التي تحيط به ، ولم يغادر شيئًا منها ، وجاءت " الفاء" لتدل على الترتيب والتعقيب ، أي أن حالة الاضطراب والحيرة مستمرة متتابعة متعاقبة ، فمن حالة اللهفة و الفرح لتمثلها أمامه إلى حالة الحيرة والاضطراب ، وكأنه قد ضعف بصره ، وغشيت عينيه غشاوة لا يستطيع معها أن يراها ، فمن الفرح إلى الحزن ، وهكذا تتقلب عليه المشاعر سريعًا ، وعبر بالفعل المضارع (تغشى) لاستحضار تلك الحالة في الذهن ، كأنها مشاهدة مرئية ، لينقل إلى السامع ، والقارئ تلك الحالة ، وهذه المشاعر التي لا يشعر بها إلا من بعد عن الأهل والأوطان، وتكالبت عليه الأحزان ، وهو وحيدٌ لا يماك إلا الذكرى .

وفي قوله (فتغشى مقلتى السمادر) " استعارة تصريحية " ، حيث شبه التغطية بالتغشية ،أي تغطية ،وإحاطة المرض لعينيه ، وشموله لهما ، بالتغشية، بجامع الإحاطة والشمول في كل ،ثم حذف المشبه ، وتناسى التشبيه ، وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعار التغشية للتغطية ، واشتق من

التغشية (تغشى) بمعنى (تغطي وتحجب) على سبيل الاستعارة (التصريحية التبعية في الفعل) وقدم (مقلتى) في قوله (فتغشى مقلتي السمادر) للاهتمام بالمتقدم ،فالعين محل النظر ،وموضع المرض وحجب الرؤية عن عينيه هو وحده ، فهي المخولة بالنظر والإبصار ، وهي التي مُلئت بصورة الصغيرة التي من شدة شوقه إليها يتخيلها أمامه في أغلب الأحيان ، وقرنها "بياء " المتكلم للاختصاص ، أي مقلته هو دون غيره ،وغشاوة ومرض العين عليه هو وليس على غيره .

وفي البيت الثامن : جاءت الكناية البديعة في موضعها اللائق بها ، لتدل على حقيقة ما يشعر به البارودي وهو" البعد والفراق " ، فقال :

فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي *** وَيَا قُرْبَ مَا الْتَفَتْ عَلَيْهِ الْضَّمَائِرُ**

(فيا بعد ما بيني وبين أحبتي) ، كناية عن بُعد المسافة بينهما ، وعبر "بالفاء" للدلالة على الترتيب والتعقيب،فهذه الحالة من اللهفة ، والحنين متلاحقة متقاربة ومتعاقبة،وقد عبر عن البعد المكاني بينه وبين أحبته ب(يا) التي لنداء البعيد " لتعظيمه"، وجاءت المقابلة الرائعة بين شطري البيت لتؤكد مضمون ومكنون ما يشعر به الشاعر ، ويقر حقيقة كان يتجاهلها ، وهي حقيقة البعد والفراق ، والمسافات الشاسعة التي تفصل بينه ، وبين أحبابه ، وقرب ما يجمعهم من مودة وشوق يطوي المسافات طيًّا ، فالقلوب مجتمعة ، والأجساد متباعدة . وقدَّم الجار والمجرور (عليه) في قوله (ما التفت عليه الضمائر) لأنه محل الاهتمام ، فالضمير في "عليه" يعود على المحبة ، والشوق ، واللهفة ، والود، لتمكنهم من نفسه وقلبه رغم بُعد المسافات ، ولذا استخدم (ما) للتفخيم والتهويل مما يكنه في نفسه من مشاعر ، فهي مشاعر جياشة لا حدود لها ، وقد عبر "بالضمائر "لأنها محل ومكمن المشاعر ، فعبر بالمحل وهو (الضمائر) ، وأراد ما فيه وهو (الشوق والود) في قوله(ويا قرب ما التفت عليه الضمائر) ، وجاءت أداة النداء (يا) في الشطر الأول لتدل على بُعد المسافة ، وفي الشطر

الثاني لتدل على بُعد المنزلة والمكانة ، وللتعظيم من شأن تلك المشاعر ، ووصل بين الشطرين (للتوسط بين الكمالين) .

وفي البيت التاسع : يمد الشاعر من حبال الأمل لنفسه إلى أبعد من الحياة، فيقرر أنه إذا كانت الأيام فرقت بينه وبين أحبابه ، فإنهم حتمًا سيرجعون جميعًا إلى الله مولاهم ، وخالقهم ، وسيلتقي بهم في رحابه ، وهذا ما يعزي به نفسه ، ويعينها على احتمال الشدائد التي يلاقيها في حياته . فقال :

فَإنْ تَكُن الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ***** فَكُل امْرِئٍ يَوْمًا إلى اللهِ صَائِرُ

فالبيت كله يجري مجرى الحكمة ، وهو من عبقرية البارودي ، حيث يطير بنا ، ويجعلنا نحلق معه في سماء فكره ، ونغوص في أغوار مشاعره ، ويطوف بنا بين حنايا آلامه ، وآماله ، ثم يعود بنا ليقرر الحقيقة الأصيلة ، والنهاية المحتمة علينا جميعًا ، وهي أننا جميعًا مردنا إلى خالقنا ، وهذه النهاية مهما ظننا أنها بعيدة فهي قريبة جدًا. ولذا عبر ب" الفاء" ، لأنها المناسبة في هذا المقام ، وعبر ب" إن" هنا للدلالة على شكه في تفريق الأيام بينه ، وبين ابنته ، فهو يشعر دائمًا أنه معهم ، وهم بجانبه ، بقلبه ، ومشاعره ، ووجدانه، فيتجاوز الزمن وكأنه لا يستطيع أن يفرق بينهم ، ولذا نجد البارودي يختار اللفظ ، والحرف ، الذي يعبر عن مكنون مشاعره ببراعة . وقد جاء (إيجاز الحذف) في قوله (فإن تكن) ، وأصلها (فإن تكون) ، بحذف حرف (الواو) للدلالة على ضيق الصدر ، وعدم الإطالة في الكلام ، لما يحويه قلبه من جرح غائر، وألم شديد لبعدهم عنه .

وفي إسناد الفُرْقة إلى الأيام في قوله(فإن تكن الأيام فرَّقن بيننا) مجاز عقلي علاقته (الزمانية) ، فالأيام ليست هي الفاعل الحقيقي للفرقة ، وإنما هي الزمن الذي وقعت فيه الفرقة ، وقد جاء الشطر الثاني استئناف بياني ، حيث جاء جوابًا عن سؤال مقدر اقتضاه الشطر الأول ، أي (فماذا يحدث ؟) فكان الجواب

(فكل امرئ يومًا إلى الله صائر) ، وعبر "بالفاء" التي للترتيب والتعقيب في قوله (فكل إلى الله صائر) ، للدلالة على سرعة البيان ، وتوضيح المآل ، فالكل إلى الله صائر ، ولذا عبر ب" كل " للدلالة على العموم والشمول ، وقد جاء (امرئ) نكرة للتعميم والتكثير ، وكذلك جاء لفظ (يومًا) نكرة أيضًا ، أي في اليوم الذي كتبه الله عليه ،فلكل نفس أجل ، ويوم محتوم ترد فيه إلى الله تعالى ، فقد عبر باللفظ الدقيق في مكانه المناسب على الوجه الذي يخدم مراد الشاعر .

وقدم الجار والمجرور في قوله (إلى الله صائر) لإفادة " القصر" ، فقد قصر الرجوع ، والمآل إلى الله تعالى ، قصر (صفة على موصوف) ،" قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا"، وعبر باسم الفاعل (صائر) للدلالة على الثبوت والدوام ، وبيان أن المرجع والمصير إلى الله تعالى ، وهو أمر دائم ، وثابت لا شك فيه ،والشطر الثاني كله من قبيل (التذييل غير الجاري مجرى المثل) ، لأن معناه متوقف على ما قبله ، ومكمل له ، فالإطناب هنا جاء لتأكيد المعنى وتقويته في نفس السامع .

اللوحة الثالثة : - بعنوان (خداع الحياة وتقلباتها)

١- هي الدَّارُ ،مَا الأنفَاسُ إلا نَهَائِبُ ***** لَدَيهَا ، وَمَا الْأَجسَامُ إلا عَقَائِرُ [١]
٢- إِذَا أَحْسَنَتْ يَوْمًا أَسَاءَتْ ضُحَى غَدٍ ***** فَإِحْسَانُهَا سَيْفٌ عَلَى النَّاسِ جَائِرُ
٣- تَرَبُّ الْفَتَى، حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُهُ ***** دَهَتْهُ، كَمَا رَبَّ الْبَهِيمَةَ جَازِرُ [٢]
٤- لَهَا تِرَةٌ فِي كُلِّ حَيٍّ، وَمَا لَهَا ***** عَلَى طُولِ مَا تَجْنِي عَلَى الْخَلْقِ وَاتِرُ [٣]
٥- كَثِيرَةُ أَلْوَانِ الوِدَادِ ، مَلِيَّةٌ ***** بِأَنْ يَتَوَقَّاهَا القَرِينُ المُعَاشِرُ
٦- فَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيَا بِحِكْمَةِ نَاقِدٍ **** دَرَى أَنَّهَا بَيْنَ الأَنَامِ تُقَامِرُ

(١) نهائب: مغانم ، من نهب الشئ نهبًا : أخذه قهرًا. انظر المعجم الوجيز ص ٦٣٦- عقائر: معقورات ، من قولهم :عقرت البعير أي: قطعت إحدى قوائمه وذبحته .انظر المعجم الوجيز ص ٤٢٧.

(٢) دهته : أصابته بداهية ، وهي الأمر العظيم . انظر المعجم الوجيز ص ٢٣٧.

(٣)الترة : الثأر، وهي مصدر وترة ، أي : أدركه بمكروه. انظر المعجم الوجيز ص ٦٥٩.

في هذه اللوحة الشعرية يُفيض الشاعر في وصف أحوال الدنيا وتقلباتها ، وتغيرها من حال إلى حال ، والبارودي حين يصف أحوال الدنيا فهو ليس بأي واصف ، فهو وصف خبير بأحوالها ، عليم بخداعها ، فقد عركته أحداثها ، ورأى من إقبالها ما أسعده ، ومن إدبارها ما أحزنه ، وحياته ما هي إلا صورة ومثال لما تفعله الدنيا في طُلابها ، ونجد أن صوت الحكمة هو الصوت المسيطر والمسموع في هذه اللوحة الشعرية الرائعة ، فيقول :

هي الدَّارُ ،مَا الأَنفَاسُ إلا نَهَائِبُ *** لَدَيهَا ، وَمَا الْأَجسَامُ إلا عَقَائِرُ**

فهو بدايةً يقرر أنها حياة دنيا تعمل في قاطنيها كالوحش الهائج الذي يلتهم كل المظاهر المبهجة ، وأجسام الناس فيها كالفريسة التي تقطعها وتنحرها ، فتنفس الإنسان فيها مكسب ، وغنيمة منها .

وقد قدم المسند إليه ضمير الشأن أو الحال(هي) أي : الدنيا لأنها محل اهتمام الشاعر ، فهي التي فعلت به ما فعلت ، وأنزلته من علٍ ، ودهته بالدواهي والمحن ، وأبعدته عن أحبته ، ورمته في غيابات النفي والتشريد ، وأوجعته بفراق أهله، وللتشويق لذكر الخبر وهو (الدار)، وقد عرفها ب(بالضمير) "هي"، لأن المقام مقام غيبة ، لكون المسند إليه مذكورًا صراحةًوهو(الدنيا) ، تلاه تعريف ب(أل) التي للجنس ، أو لام الحقيقة ، لأن مدخولها مرادٌ به حقيقة دار الدنيا ، وهي الزوال والفناء، وفي هذا (قصر بتعريف الطرفين) ، فما فيه (أل) هو (المقصور) تقدم أو تأخر- والتعريف ب(اللام) في (الدار)المراد بها (الدنيا) يفيد الجنسية التي تستغرق الأفراد،فقد قصر الدار على الدنيا ،فالمقصور هنا مطلقًا غير مقيد بوصف أو حال ..إلخ ،ففي القصر إيجاز في التعبير ، وفيه تمكين لمضمون الكلام وتقريره في الذهن ، كما أنه يصحح خطأ المخاطب في فهم الدنيا، وفيه من المبالغة مالا يخفى على أحد . ويؤيد كون الدنيا دار فناء وزوال قوله

تعالى { وَإِنَّ الدَّارَ الآَخِرَةَ لَهِيَ اَلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون }[١] ، ويؤيد ويؤكد هذا الوصف للدنيا بالقصر بطريق النفي والاستثناء في قوله (ما الأنفاس إلا نهائب لديها) ، وقوله (وما الأجسام إلا عقائر) ، فالدنيا تنهب الأعمار نهبًا ، وتتخذ من أجساد الناس أغراضًا ترميها بالمصائب والآلام ، وهي لا تخطئ رميتها ، فكل الأجسام معقورة بما تسدده إليها من قواتل ، فقصر الأنفاس على النهب لدى الدنيا، والأجسام على العقر والذبح ، (قصر موصوف على صفة) ، فعبر بطريق النفي والاستثناء ليؤكد حقيقة الدنيا ،وهو ما أراد الشاعر إيصاله للسامعين ، وتقريره في نفوسهم كما يراها هو في نفسه ،فالقصر هنا جاء ليراعي حال المتكلم نفسه ، ولذا آثر القصر بطريق " النفي والاستثناء" لأنه أبلغ الطرق وأقواها، ولأنه كثر استعماله في المعنى الذي يحتاج إلى توكيد وتقرير ، ومراعاة لحال المتكلم .وفي هذا صورة بيانية رائعة ، رسمت لوحة مرئية للدنيا ،فشبه الدنيا بالوحش المفترس الذي ينهب الأعمار، ويلتهم فريسته التهامًا لا هوادة فيه ،ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو (النهب والاغتيال)، وهو من قبيل" الاستعارة المكنية "، فهذه الاستعارة قد صادقت موقعها ، وأحدثت الأثر الفني و النفسي الذي يثير القارئ والسامع ، ويجعله يحس ويشعر بما يعانيه الشاعر من حالة نفسية سيئة ، وبمرارة الأيام التي يعيشها ، وكل ذلك عبر عنه بأسلوب راقٍ جميل يأخذ القلب والعقل معًا ، وقد دلل على ذلك بصيغة المبالغة في (نهائب)، و(عقائر) ، على وزن (فعائل) ، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وقد عبر ب(الأنفاس)

وأراد (الأجسام) ، فهو من قبيل (المجاز المرسل لعلاقة الجزئية) ، حيث عبر بالجزء وهو " الأنفاس"، وأراد الكل وهو" الأجسام"، فلا حياة بدونها ، فذكر ما من شأنه حياة البشر وهو (الأنفاس) ، فإذا انقطعت فلا حياة ، وجاء

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤

بلفظ الجمع للمحافظة على وزن البيت ، وللدلالة على التعميم ، فهو يريد أن يقول أن هذا الوصف شامل الجميع ، ليس فيه استثناء لأحد ، ثم أكد ذلك بقوله (لديها)، فالضمير يعود على الدنيا ، وكأنه يريد أن يؤكد هذا الفعل لها دون غيرها، ثم وصل بين قوله (ما الأنفاس إلا نهائب لديها) وقوله (وما الأجسام إلا عقائر) " للتوسط بين الكمالين " ، فالمناسبة واحدة ، فالحديث عن الدنيا وغدرها، وما تفعله بطلابها ، فلا عجب أن تفعل بهم كل هذا ، فهي المتمكنة منهم ، القادرة على النيل من أحلامهم ، واغتيال آمالهم .

وتكتمل الصورة البيانية المصورة لمكنون الشاعر بالتشبيه البليغ الرائع في قوله (ما الأجسام إلا عقائر) ، فشبه الأجسام بالذبيحة التي تعقر وتذبح بفعل الدنيا ، بجامع الاغتيال والذبح في كلٍ ، ففيه بيان رائع ، وصورة مجسمة مشاهدة مرئية تأخذ الألباب ، وتمكن المعنى في ذهن السامع ، وفيه أيضًا (استعارة بالكناية) ، حيث شبه الدنيا بالجاذر الذي يصوب سكينه إلى ذبيحته ، بجامع الذبح وإزهاق الروح في كل ، ثم حذف المشبه به ، وهو (الجاذر) ورمز إليه بشئ من صفاته وهو (العقر والذبح) . وفي لفظ (عقائر) أيضًا " مجاز مرسل علاقته المفعولية "، فعقائر بمعنى (معقورات) ، ولاشك أن النكات البلاغية لاتتزاحم بل يقوي بعضها بعضًا .

وهذا البيت من قبيل (الإطناب) حيث جاء قوله (ما الأنفاس إلا نهائب لديها ،وما الأجسام إلا عقائر) بيان وإيضاح لحقيقة الدنيا في قوله (هي الدار)، فأراد أن يوضح حقيقتها ، ويبين شراستها وغدرها ، وعدم بقاء نفعها لأحدٍ ، فهي سريعة الزوال ، سريعة التقلب ، لا تبقى على أحد ، ولا يدوم خيرها لأحد ، وهذا الإطناب جاء في موضعه ، فحالة الشاعر النفسية جعلته يسطر هذه الأبيات ترويحًا عن نفسه ، وكشفًا لمكنون حزنه ، وحنقه وغضبه على الدنيا .

وفي هذا البيت أيضًا (صحة التقسيم)، حيث قسم حال البشر معها ، فهم أنفاس منهوبة ، وأجسام معقورة ، ولا ثالث لهما في نظر الشاعر ، فهو يعزي نفسه بهذه الكلمات ليتخلص من وطأة الألم الذي يعيشه في منفاه .

وفي البيت الثاني : يستمر الشاعر في بيان حقيقة الدنيا ، وأنها سريعة التقلب ، فليس هناك مهلة بين إحسانها وإساءتها ، فهي تعقب الإحسان بالإساءة، فإحسانها إلى الناس ما هو إلا مقدمة لإساءتها وغدرها ، فهي شرٌ واقعٌ بالناس . فيقول : **إِذَا أَحْسَنَتْ يَوْمًا أَسَاءَتْ ضُحَى غَدِ ***** فَإِحْسَانُهَا سَيْفُ عَلَى النَّاسِ جَائِرُ**

ففي قوله (إذا أحسنت يومًا أساءت ضحى غد) "كناية " عن سرعة تقلباتها ، ولذا عبر ب (إذا) للدلالة على تحقق الوقوع ، فليس هناك شك في غدرها ، فتبدل الأحوال واقع لا محالة ، ولا شك فيه ، ولذا أعقب (إذا) بالفعل الماضي (أحسنت – أساءت) ، لتأكيد وقوع الفعل وتحققه ، وقد جسدت (المقابلة) البديعة بين (أحسنت يومًا – وأساءت ضحى غدٍ) معنى التقلب ، ووضحته ، وأكدته في نفس السامع والقارئ ، وخصَّ وقت (الضحى) في قوله (أساءت ضحى غد) لبيان ظهور الإساءة بحيث لا تخفى على ذي عقل ، وبصر ، وبصيرة ، فإساءتها ظاهرة للأنام لا خفاء فيها ، وهي من قبيل مقابلة (اثنين باثنين) ، وقد جاءت على الترتيب لتزيد المعنى في الفكر وضوحًا ، وفي النفس رسوخًا ، فتقابل المعاني يؤكد المعنى خير تأكيد ، ويصوره في الذهن أتم تصوير وأدقه ، حيث إنه أتى بذكر المعنى مرتين ، مرة بلفظه ، ومرة بضده ،، فالمقابلة أوحت بمعان خفية ، وأضفت ظلالاً وارفة على الأسلوب ، فأجملت معناه ، وعمقت مغزاه، ووضحت الفكرة ، وأظهرت الصورة ، فالضد يظهر حسنه الضد . وجاء لفظا (يوم وغد) نكرة (للتعميم) ، ليعم كل يوم ، وكل غد ، فهذا الطبع في الدنيا عادة دائمة ، وفي إسناد الإحسان والإساءة إلى الدنيا (مجاز عقلي) ، فالدنيا هي المكان الذي يقع فيه الإحسان والإساءة ، واليوم والغد هو الزمن المنوط بذلك ، فالإحسان والإساءة بتقدير الله تعالى ، ثم أعقب ذلك ب(الفاء)

لتدل على السرعة في بيان حقيقة (الإحسان) وماهيته ، في قوله(فإحسانها سيفٌ على الناس جائر) ،فالشطر الثاني (إطناب) لما أجمل في حقيقة الإحسان في الشطر الأول ، وكأنه يريد أن يقول :إن إحسانها في حقيقته شرٌ يقع على الناس ، وظلم وسيف مسلط عليهم ، فقوله (فإحسانها سيفٌ على الناس جائر) إيضاح وتفصيل لما أبهم ، وأجمل في الشطر الأول . وقد شبه (الإحسان) ب(السيف) في الفتك ، والحدة ، والاغتيال ، فهذا التشبيه وإن كان من قبيل تشبيه المفرد بالمفرد، إلا أن وجه الشبه فيه (تمثيلي) عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، حيث إن وجه الشبه هنا متحقق في المشبه به ، متخيل في المشبه ، ويحتاج في تخريجه إلى تأويل ، فالمشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية ، مثل (حجة كالشمس في الظهور) فقد أحتيج في تحصيل الشبه الذي بين الحجة والشمس إلى تأويل ، فكل ما احتاج في تحصيله إلى ضرب من التأويل والصرف عن الظاهر فهو (تمثيلي) عند الإمام عبد القاهر الجرجاني[١] . ونكر لفظ (سيف) للتعظيم والتكثير ، أي: أن أثره عظيم على الناس ، كثير الوقع والسطو والشر عليهم ، ولذلك آثر لفظ (على) لتدل على الاستعلاء والتمكن من الناس ، وإحاطته بهم ، فلا يفلتون من ظلمه ،وجاء لفظ (الناس) معرفًا ب(ال) التي للجنس ، ليشمل جميع الناس ، ولا يفلت أحد منهم من سطوته ، وشره، وجاء لفظ (جائر) صيغة مبالغة على وزن (فاعل) ، ليدل على المبالغة في ثبات الظلم ، والتسليط،والسطوة وديمومتها ، فالدنيا لا تفلت أحدًا ، وإن أحسنت أعقبت إحسانها بالشر، وجاء لفظ (جائر) هنا (احتراس أو تكميل) [٢] ،لدفع توهم أن

(١)انظر أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني – علق حواشيه الأستاذ / أحمد مصطفى المراغي – مطبعة الاستقامة بالقاهرة – ص ١٠٧ – والإيضاح ج ٤– من٤٨: ٥٣ الهوامش بتصرف.

(٢) التكميل ويسمى(بالإحتراس) ، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الإيهام . – انظر المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم –د/ عبد الفتاح لاشين –دار الفكر العربي ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

هذا السيف المسلط على الناس عادلاً ، وإنما هو جائرٌ، ظالمٌ لهم ، وقدم الجار والمجرور (على الناس) على قوله (جائر) للقصر ، حيث قصر الجور والظلم الواقع من الدنيا على الناس (قصر صفة على موصوف) لتأكيد المعنى في ذهن السامع .

وهذا البيت من قبيل (الاستعارة المكنية) ، حيث شبه الدنيا بالإنسان الظالم المتعصب ، الدائم الاعتداء على الخلق دون وجه حق ، وكأن بينه وبينهم ثأر ،ولا يستطيعون رد ظلمه عنهم ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو(السيف) الجائر (أداة البطش والظلم) ،وكل ذلك وُظف لبيان الحالة النفسية للشاعر ، فشعره مرآة لما يشعر به .

وفي البيت الثالث : يستمر الشاعر في بيان خداع الحياة ، وكثرة إغرائها ، وأنها تعد بما لا تفي به ، فهي تمني الإنسان بالآمال الواسعة ، وتعلو بالإنسان إلى أعلى مكانة ، ثم تأخذه على حين غرة إلى الهاوية ، وتصيبه بالدواهي العظيمة ، فهي في ذلك كمن يُربي البهيمة ، ويتعهدها بالغذاء ، والرعاية ، حتى إذا تم كمالها نحرها ، وهو في ذلك يُصدق قول القائل : (إذا تم الشئ فترقب زواله).

فنراه يقول :

تَرَبُّ الْفَتَى، حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُهُ *** دَهَتْهُ، كَمَا رَبَّ الْبَهِيمَةَ جَازِرُ**

ففي قوله (تُرب الفتى)، شبه الدنيا بالأم الحانية الدؤوبة على تربية أبنائها في محبة ولطف ، ثم حذف المشبه به ، وهي الأم ، ورمز إليها بشئ من لوازمها وهي التربية والرعاية على سبيل (الاستعارة المكنية)،وسر الجمال هنا في التشخيص ،حيث جعل الدنيا كائن حي من لحم ودم ومشاعر وأحاسيس مما جعل الصورة تنبض بالحياة ، فكانت أبلغ في الإحساس .

وقد حذف المسند إليه في قوله (تُرب الفتى) أي: هي ترب الفتى ، والمراد بها (الدنيا) ، للاحتراز عن العبث ، فالحديث عن الدنيا ، وقد تقدم

الحديث عنها في الأبيات السابقة ، والمناسبة متصلة لبيان خداعها ، فأصاب الشاعر في عدم ذكرها منعًا للسأم والملل ، ولأن ما يأتي بعد ذلك هو محل اهتمام الشاعر، وموضع بيانه

وعرف (الفتى) ب(لام العهد الذهني) [١] ، فالمراد فتىً غير معين من أفراد الحقيقة . وعبر بالفعل المضارع (تُرب) لاستحضار تلك الصورة في الذهن من الرعاية ، والملاحظة ، والمتابعة والاهتمام ، فكل ذلك يصدق على التربية التي تتعهدها الدنيا بفريستها ، ولا يخفى على ذي عقل ما يفعله هذا الإيثار من رسوخ المحبة في النفس للدنيا ، التي تربي ، وتحنو، وتحيط الإنسان بكل مظاهر الحنو ، (حتى) ،و(حتى) هنا للغاية ، أي : حتى إذا تم كل شئ ، وظن الإنسان أنه يملك الدنيا وما فيها، وأن الحياة مقبلة عليه غير مدبرة ، فالشاعرهنا أصاب في استعمال لفظ (حتى) هنا لتدل على النهاية ،فإذا ب(إذا) الفجائية تدخل على نظم الشاعر لتعبر عن مفاجأة الدنيا لطلابها ، ومجئ شرها من مكمن أمنها ،معبرة عن تحقق وقوع ما كان يوهم نفسه به ، من أنه دائم لا يزول عنه ، وعبر عنه بقوله (تم أمره) ، فاستعمل الفعل الماضي تأكيدًا لتحقق وقوعه ، واستقراره في نفسه ، وجاء لفظ (أمره) مبهم للتعميم ليشمل كل ما يصبوا إليه ، فقوله (إذا تم أمره) "كناية " عن اطمئنان النفس ، وتمام كمال كل شئ أي : (بلوغ الغاية وتمام المراد) ، ثم يوضح المفاجأة ، والمخادعة من الدنيا بقوله (دهته) أي : أصابته بالداهية والمصيبة ، وافترسته، واغتالت أحلامه ، وعبر عنها بالفعل الماضي لتحققها ، ووقوعها ، ففصل الشطر الثاني عن الشطر الأول

---

(١) لام العهد الذهني هو: ان يأتي بالمعرف بلام الحقيقة أو الجنس ، مرادًا به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذهن ، لاشتمال الحقيقة عليه ، لقرينة دالة على ذلك . انظر من بلاغة النظم العربي د/ عبد العزيز عرفة – ج ١ –ص١٥٧– عالم الكتب – الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

(للاستئناف البياني) ، حيث جاء قوله(دهته) جواب عن سؤال مقدر اقتضاه الشطر الأول أي: ماذا فعلت به ؟ فكان الجواب دهته .

ثم يأتي التشبيه التمثيلي ليصور لنا رائعة من روائع التصوير البياني ، حيث شبه هيئة الدنيا في اقبالها على الناس ، وإغداقها كل ألوان النعيم عليهم ، ورفعها لمكانتهم ، واطمئنان النفوس لها ، بهيئة الجزار الذي يربي بهائمه ، ويتعهدها بالرعاية والغذاء ، حتى إذا تم كمالها ذبحها على حين غفلة منها ، ووجه الشبه (الهيئة الحاصلة من حصول الفتك والافتراس والخداع في كل .

وجاء لفظ (جازر) على وزن (فاعل) للدلالة على ثبوت وتحقق الذبح والفتك للدنيا ، فهي خادعة تغري طلابها ، ثم تنقض عليهم بالفتك ، والذبح .

*<u>وفي البيت الرابع</u> : يستمر الشاعر في بيان حقيقة الدنيا ، ويكمل ما بدأه في الأبيات السابقة ، ويصفها بالإنسان الظالم ، الذي له ثأر في كل حي ، وعند كل حي ، ويسعى ليقتص من هؤلاء الأحياء ، وهي على كل هذا الجبروت والظلم، لا يستطيع أحد أن يقتص منها ، فما سلم من آذاها أحد ، ولم يثأر منها أحد على كثرة ما للناس عندها من ثأر . فقال :

لَهَا تِرَةٌ فِي كُلِّ حَيٍّ، وَمَا لَهَا *** عَلَى طُولِ مَا تَجْنِي عَلَى الْخَلْقِ وَاتِرُ**

فقدم الجار والمجرور في قوله (لها ترة) لإفادة القصر ، حيث قصر الترة (الثأر) على (لها) ، أي : الدنيا ،فهي المنوطة بأخذ الثأر من كل الناس ، وفي كل مكان ، والقصر هنا أدى المعنى بإيجاز بديع ، حتى يتمكن المعنى في ذهن المتلقي .وجاء لفظ (ترة) نكرة ،للتكثير والتهويل من شأن الثأر ، ليشمل جميع أنواعه ، وكل أشكاله ، ولفظ (في) في قوله(في كل حي) تدل على الظرفية ، والتمكن والإحاطة ، أي : تمكن وقوع الثأر على جميع الناس ،فلا يستطيع أحد الإفلات من ثأر الدنيا ، ولذا عبر بلفظ العموم (كل)، ونكر لفظ (حي) أيضًا للتعميم ، ليعم ويشمل كل الأحياء ، فالعبارة كلها توحي بالإيجاز في اللفظ ،والتكثير في المعنى ، فكل لفظة وضعت في موضعها اللائق بها لتؤكد المعنى ،

وليكون كالعقد المتناسق حباته ، الدال على المعنى المراد ببراعة .وجاء قوله (على طول ما تجني) ، (للاحتراس) ، حتى لا يتوهم أن الثأر من جانب الدنيا جاء بحق ، وأنه لا يوجد من يثأر من الدنيا لعدلها ، ولكونها لا تفعل بالبشر ما يؤذيهم ، فقوله (على طول ما تجني) جاءت لتقرير هول ما تجني ، وما تفعل بالخلق في ذهن السامع .وحذف عائد الصلة في قوله(ما تجني) أي: (ما تجنيه) للتعميم ، وللدلالة على الكثرة والاتساع ، فالاسم الموصول (ما) دل على التفخيم والتهويل مما تجنيه الدنيا من أهوال ، ومصائب على الخلق ، ولا يستطيع أحد أن يثأر منها. وبين (لها) في أول البيت ،و(وما لها) في نهاية الشطر الأول (طباق سلب) أكد مراد الشاعر ، ووضح الصورة وجعلها مشاهدة مرئية تنبض بالحياة والحركة. وفي هذا البيت (استعارة مكنية) ، حيث شبه الدنيا في طغيانها وجبروتها بالإنسان الظالم المتجبر المستبد الذي لا يستطيع أحد رده عن ظلمه ، بجامع البطش والسطوة والقوة في كل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو (الثأر) ، وبين (ترة) في أول البيت ، و(واتر) في عجزه ، (رد العجز على الصدر) ، مما أكسب البيت موسيقى لفظية رائعة ، أطربت الأسماع وشدت انتباه السامع ، وجعلته يقبل بشغف ليتدبر تلك الصورة الرائعة التي عرضها الشاعر بموهبته الفنية ، وقدرته الرائعة على التصوير ، فجعل المعنى يستقر في النفس ، ويتمكن من الفهم . وعبر باسم الفاعل (واتر) ، ليدل على ثبوت وديمومة النفي لتلك الصفة لضحايا الدنيا ، فقد أدركوا الثأر ، وعجزوا أن يثأروا منها . وعرف (الخلق) بالألف واللام التي للجنس ، ليشمل جميع الخلق ، فلا يفلت أحد من مكايد الدنيا .

<u>وفي البيت الخامس</u> : يشير الشاعر إلى وسائل خداع الدنيا ، وما تتبعه مع ضحاياها ، فهي تجذبهم بكثرة المباهج والفتن ، وتنوع أساليب الإغراء ، ولكن الحكيم هو الذي يحاذر من مكرها ، ويحترس منها . فقال :

كَثِيرَةُ أَلْوَنِ الوِدَادِ ، مَلِيَّةُ ***** بِأَنْ يَتَوَقَّاهَا القَرِينُ المُعَاشِر

وقد جسد ذلك المعنى في صورة بيانية رائعة تدل على براعة الشاعر في التصوير ، حيث شبه حال الدنيا ، وكثرة تلونها لخداع طالبيها ، ثم لا تلبث فتفتك بهم ، بحال المرأة اللعوب المراوغة ، كثيرة ألوان الزينة لإغراء مريدوها ، فتظهر لعشاقها ألوانًا من الود ، ثم لا تلبث أن تغدر بهم ، بجامع الخداع ، والمكر، وعدم الأمن في كل ، ثم استعيرت العبارة الدالة على المشبه به للمشبه على سبيل (الاستعارة التمثيلية) ، والقرينة (الحالية) ، فالدنيا لا تتزين ، ولا تتودد حقيقة في الواقع .فخليق بمن يركن إلى الدنيا ، ويأنس لها أن يحذر من بطشها ، وآلا يأمن غدرها .وقد حذف المسند إليه (هي) في قوله(كثيرة ألوان الوداد) للعلم بها ، وللاحتراز عن العبث ، فالحديث عن الدنيا ، وقد تقدم ذكرها في الأبيات السابقة ، ولضيق الصدر مما تفعله بالخلق من مكر وخداع .

وجاء لفظ (ألوان) عامًا للدلالة على الكثرة والتنوع في أساليب الخداع .

وحذف المسند إليه في قوله (ملية) بمعنى: جديرة أي: (هي ملية) للعلم بها لتقدم ذكرها . وعبر بالفعل المضارع (يتوقاها) للدلالة على التجدد والاستمرار ، فالحذر منها يجب أن يكون مستمرًا دائمًا ، وجاء قوله(القرين المعاشر) بيان وإيضاح لمن يجب عليه الحذر من الدنيا وهو(الصاحب المعاشر) . وعرَّف (القرين) باللام ليشمل كل فرد ممن ينطبق عليه هذا الوصف ، وأضاف إليه (المعاشر) لأنه الأحق والأجدر بالحرص والانتباه من غدرها .

ثم يأتي البيت السادس: ليصل إلى ملاك الأمر ، وذروة حكمة الشيوخ التي تركت آثارها في قلوبهم ، وعلى وجوههم ، فيقرر أن الدنيا من نظر إليها نظرة الحكيم الناقد لأحوالها عرف أنها مقامرة ، ومراوغة . فقال :

فَمَنْ نَظَرَ الدُنْيَا بِحِكْمَةِ نَاقِدٍ **** دَرَى أَنَّهَا بَيْنَ الأَنَامِ تُقَامِرُ

فعقب كلامه سريعًا بحكمة الحكيم المجرب ب(الفاء) ، للإسراع في تلخيص وإيجاز التجربة التي عاشها ، والحقيقة التي لمسها ، و(نظر) هنا بمعنى (علم) ، أي : علم حقيقتها ،وخداعها ، وتقلباتها ، وأنها تتغير وتتقلب ، ولا تثبت على

حال مع بني البشر، والتعبير ب(النظر) هنا أبلغ لأنه فيه معنى العلم والإدراك وزيادة ، وكأن الدنيا مجسدة مشاهدة أمامه ، فالإدراك بالحس أبلغ وأرسخ في النفس من الإدراك بالعقل ، وجاء التعريف بالاسم الموصول (من) لتقريرالغرض المسوق له الكلام ، وهو تقرير مراوغة الدنيا ، وأنها مقامرة لا تثبت على حال . ونكر لفظ "ناقد" للشمول والعموم ، لتعم كل من له عقل واعٍ ، وحس مرهف ، وقدرة فائقة على التمييز بين الجيد والردئ ، وفصل الشطر الثاني عن الأول (لشبه كمال الاتصال) ، فالشطر الثاني جاء جواب عن سؤال مقدر اقتضاه الشطر الأول ، وهو " ماذا يحدث لمن ينظر إلى الدنيا بنظرة الناقد المتأمل في أحوالها ؟ . وقدَّم (بين الأنام) على قوله(تقامر) لإفادة القصر . فقد قصر مقامرة وخداع الدنيا على (الأنام) فهم محل اهتمامها ، وموضع مراوغتها، ولذا عبر ب" ظرف المكان" (بين) ، وعبر بالفعل المضارع (تقامر) لاستحضار تلك الصورة المنفرة في ذهن السامع والقارئ حتى يتجنبها ، ويأخذ حذره منها ، وهي صورة بيانية رائعة زادت المعنى تأكيدًا في النفوس ، ورسوخًا في العقل والخاطر ، حيث شبه الدنيا بإنسان مقامر مخادع يخدع من حوله بالمكسب السريع الزائل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو لفظ (تقامر) على سبيل الاستعارة المكنية .

ولا شك أن الاستعارة المكنية قد صورت المعنى تصويرًا قويًا مجسمًا يشاهده الإنسان ، ويلمسه ، فيؤثر في السامعين ، فتستقر الصورة التي يريد الشاعر رسمها في ذهن المتلقي . وهذه الصورة الحية التي تنبض بالحركة ، والحياة ، من روائع البارودي التي برع في إبرازها في شعره ، وتفوق بها على أقرانه .

اللوحة الرابعة : - بعنوان (صبر وأمل)

١- صَبَرْتُ عَلَى كُرْهٍ لِمَا قَدْ أَصَابَنِي ***** وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَنْدُوحَةً فَهوَ صَابِرُ[١]

٢- وَمَا الْحِلْمُ عِنْدَ الْخَطْبِ وَالْمَرْءُ عَاجِز*** مُسْتَحْسَنٍ كَالْحِلْمِ وَالْمَرْءُ قَادِرُ

٣- وَلَكِنْ إِذَا قَلَّ النَصِيرُ ،وَأَعْوَزَتْ *** دَوَاعِي الْمُنَى – فَالصَبْرُ فِيهِ الْمَعَاذِرُ[٢]

٤- فَلاَ يَشْمَتِ الْأَعْدَاءُ بِي ، فَلَرُبَّمَا *** وَصَلْتُ لِمَا أَرْجُوهُ مِمَّا أُحَاذِرُ

٥- فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ *** وَتَنْهَضُ بِالْمَرْءِ الْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ[٣]

٦- وَلِي أَمَلٌ فِي اللهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى *** وَيَشْرِقُ وَجْهُ الظَنِّ وَالْخَطْبُ كَاشِرُ[٤]

في هذه اللوحة الشعرية تَنْضَح المعاناة من أبياتها ، وتصور نفس الشاعر التعبة القلقة مما أصابها من اسقام وآلام ، ولكنه يلوذ بقارب الصبر يُبْحِرُ به بين هذه الآلام ، وهو قد رضي بالصبر رُغْمًا عنه ، لأنه لم يسعه غير الصبر ، ولا يقدر إلا عليه في محنته .ففي البيت الأول يقول :

صَبَرْتُ عَلَى كُرْهٍ لِمَا قَدْ أَصَابَنِي ***** وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَنْدُوحَةً فَهوَ صَابِرُ

فقد كنى عن عجزه من الخلاص مما حلَّ به بقوله (صبرت على كره) ، فهو صبر العاجز المضطر ، وعبر بالفعل الماضي (صبرت) للدلالة على تحقق وقوع الصبر ، وملابسته له ، فهو طوق النجاة ، ووسيلته لتحمل ما هو فيه ، وجاء

---

(١)الكُره (بالضم) : المشقة والكراهية وهو خلاف المحبة. انظر المعجم الوجيز ص٥٣٣- المندوحة : السعة والفسحة . انظر المعجم الوجيز ص٦٠٨.

(٢)أعوزت : العوز : الحاجة ، و(أعوز الشئ) : احتاج إليه . انظر المعجم الوجيز ص ٤٤١– المنى : جمع (مُنية)وهو : ما يتمناه المرء ويتوق إليه، وتمنى الشئ :قدره وأحب أن يصير إليه. انظر المعجم الوجيز ص٥٩٢. – المعاذر : جمع (معذرة) وهو : العذر .

(٣)الجدود : جمع (جَد) بفتح الجيم وهو: الحظ والبخت،وجَدَّ جَدًّا: صار ذا حظ. انظر المعجم الوجيز ص ٩٤– العواثر :جمع (عاثر) اسم فاعل من عثر بمعنى:زل وسقط .انظر المعجم الوجيز ص ٤٠٦.

(٤)كاشر : اسم فاعل من كشر الأسد ونحوه عن أنيابه : صاح للهجوم ، وأبدى أسنانه ،وذلك عند الغضب الشديد.انظر المعجم الوجيز ص ٥٣٥

قوله (على كرهٍ) " احتراس " حتى لا يتصور أن صبره هذا عن رضًا ومحبة ، وعبر ب(ما) في قوله (لما قد أصابني) للدلالة على التفخيم والتهويل مما حلَّ به ، وأصابه من أذى ، ولذا أكد هول ما أصابه ب(قد والفعل الماضي) في قوله (قد أصابني) ، وأضاف الإصابة إلى ضمير المتكلم في (أصابني) لتأكيد اختصاصه هو بتلك الحالة دون غيره ، أي أن الخطوب والمكاره حلت به هو دون غيره ، فهو المخصوص بالمحنة ، والنفي ، والتشريد ، وهو المبعد عن أهله ووطنه ، وهو المحروم من أبنائه ، فقوله (لما قد أصابني) تعليل للصبر المكره عليه لعجزه ، ونلمح في هذه العبارة صورة بيانية رائعة ، أراد الشاعر أن يجسدها للسامع والقارئ حتى يعيش معه في محنته ، ويشعر بآلامه العميقة ، حيث شبه ما حلَّ به من النفي والتشريد والبعد عن الأهل بالسهم النافذ الذي لا يخطئ رميته بجامع الألم والجرح الغائر وإصابة الهدف في كل ، ثم حذف المشبه به ، وهو (السهم) ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو (الإصابة) على سبيل الاستعارة المكنية ،فشبه مرارة النفي بإصابة السهم ، فقد اختار البارودي اللفظ الدقيق الذي يعبر عن مكنون مشاعره ،ووضعه في المكان اللائق به .ويجوز أن تكون من قبيل الاستعارة التبعية ، حيث شبه إصابته بالنفي والتشريد وإحاطته بكل ألوان الألم والبؤس لبعده عن أحبته ، بإصابة السهم ، وتمكن الطعنة منه ونفاذها ، ثم حذف المشبه، وتناسى التشبيه ، وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعار الإصابة بالسهم لما حلَّ به من ألم الفراق، واشتق من الإصابة أصابني بمعنى آلمني وحلَّ بي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وقد جاء تعريف المسند إليه بالاسم الموصول (من) في قوله (ومن لم يجد مندوحه) أي : (الذي) " لتقرير الغرض المسوق له الكلام وهو الصبر مكرهًا لعدم وجود سبيل للخروج مما هو فيه ، فليس أمامه إلا الصبر.

وبين (صبرت) في أول البيت ، و(هو صابر) في عجزه (رد العجز على الصدر) أكد المعنى في نفس المتلقي ، وأحدث نغمة موسيقية خلابة ، تأخذ القلوب والعقول معًا ، جعلت البيت كله ينبض بمشاعر الألم والحزن والصبر المكره ، وقوله أيضًا(فهو صابر) كناية عن عجز الشاعر عن إيجاد وسيلة للخلاص مما هو فيه ، وقد وصل بين شطري البيت لوجود المناسبة بينهما ، ولاتفاقهما في الخبرية ، فالوصل هنا (للتوسط بين الكمالين) .

وفي هذا البيت(التفات من التكلم في الشطر الأول إلى الغيبة في الشطر الثاني وذلك لشد انتباه السامع ، وجذب الأسماع لعلة الصبر ، والتماس العذر على عجزه من التخلص مما هو فيه ولذا عبر بالجملة الإسمية (فهو صابر) بدلاً من الفعلية (يصبر) للدلالة عل ثبوت الصبر واستمراره وديمومته ، وأن هذه الصفة ثابتة للعاجز لا تنفك عنه ، لذا اختار اسم الفاعل (صابر) ،للمبالغة في تحمل الصبر ، وثبوته له مكرهًا .

وجاء الشطر الثاني أيضًا (تذييل غير جار مجرى المثل) ، فالشطر الثاني متوقف ومرتبط بما قبله ، وقد جئ به لتأكيد ما استفيد من الشطر الأول ، وليرفع احتمال الصبر بغير الإكراه عليه .

<u>وفي البيت الثاني</u>: يشير الشاعر إلى فضل الصبر عند المقدرة ، وعظم قدره،وأنه أفضل من صبر المضطر المغلوب على أمره كحالته التي أُكره عليها ويعانيها .

فقال :

وَمَا الْحِلْمُ عِنْدَ الْخَطْبِ وَالْمَرْءُ عَاجِز *** مُسْتَحْسَنٍ كَالْحِلْمِ وَالْمَرْءُ قَادِرُ

ففي هذا البيت تفصيل وتوضيح لما أُجمل وأُبهم في البيت الأول ، وعبر بالإطناب هنا ليدفع عن نفسه الرضا بالمذلة ، وبيان أنه أُجبر على ذلك رغمًا عنه ، والحلم هنا معناه : الرضا بالواقع والصبر عليه ،وقد جاء الالتفات (من التكلم إلى الغيبة) في موقعه ليؤدي دوره في إبراز المعني ، وتمكينه في ذهن المتلقي ،

في قوله(والمرء عاجز) وقوله (والمرء قادر) بدلاً من(وأنا عاجز- وأنا قادر)، لأن الاسم الظاهر يعتبر من قبيل الغيبة ،فالانتقال من أسلوب التكلم إلى الغيبة أيقظ حواس السامع ، وجعله يقبل على الحكمة التي يريد ترسيخها في ذهن المتلقي بحب وشوق ، فصرف الحديث من نفسه إلى عموم الناس رغبةً في قبول النصيحة ،وجاء قوله (عند الخطب) "احتراس " دفعًا لتوهم قبول الصبر والخضوع في جميع الأوقات ،وإنما قبوله وقت الخطب والشدة ، وقد أكد (الطباق) مراد الشاعر في قوله (والمرء عاجز) في الشطر الأول ، (والمرء قادر) في عجز البيت ، مما أكسب المعنى وضوحًا ، وقوة وجزالة ، وجمع بين أطراف الموضوع سلبياته وإيجابياته ، ودافع عن نفسه بأسلوب شيق ، جذب السامع فيه لتقبل تعليله ببراعة ، وكلمة(الخطب)هنا كلمة جامعة لكل معاني الشدة ، فهي توحي بعظم الشدة ، ومعاناة الشاعر ، فهي لفظة على قصرها توحي بمعان كثيرة، وهو ما يدل على براعة البارودي في صوغ الكلمات المناسبة الموحية ، ووضعها في مكانها الدقيق .

وقد أراد أن يوضع قاعدة عامة على كل البشر ، وهو أن الصبر والتحمل مع القدرة على الخلاص أفضل من التحمل مع العجز عن رد ودفع الظلم ، ولذا عرَّف (المرء) بالألف واللام التي للجنس ليشمل كل فرد ، وليتساوى في ذلك الذكر والأنثى ، فالكل في هذا الأمر سواء ، وعبر باسم الفاعل (عاجز ، قادر) للمبالغة في ثبوت العجز والقدرة وتحققها .

وقد جمَّل وزين البيت (بالتصريع) [١] البديع بين (عاجز) في نهاية الشطر الأول ،(وقادر) في عجز البيت ، فقبل كمال البيت تعلم قافيته ، وفي هذا دلالة

---

(١)التصريع هو: جعل العروض مقفاه تقفية الضرب ، والعروض هو: آخر المصراع الأول من البيت، والضرب هو: المصراع الثاني منه. انظر من بلاغة النظم العربي -دراسة تحليلية لمسائل علم البديع - ج٤-ص١١٣- الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

على سعة القدرة في أفانين الكلام . ويحسن التصريع كلما قلَّ حتى لا يتهم بالتكلف ، وهذا ما فعله البارودي .

وفي هذا البيت أيضًا (صحة التقسيم) ، حيث قسم أحوال الناس مع الحلم والصبر على المكاره ، فأحوالهم لا تخرج عن هذين الأمرين ، إما حلم مع القدرة ، أو حلم مع العجز ، ولا ثالث لهما ، ففي (حسن التقسيم) دلالة على الدقة في الكلام ، والإحاطة بالشئ من جميع جوانبه ، فهو حصر له، وإظهار لأسراره ، ولذا فهو يقوي المعاني ، ويظهرها للعيان ، فلا يكون بعد ذلك مجال للسامع ، فقد أعطى صورة واضحة دقيقة استقرت في القلوب ، ومالبلاغة إلا وضوح المعاني وجلاؤها وصحتها .

وفي البيت الثالث :في حوارالشاعر مع نفسه يلتمس العذر لاستسلامه لحالة الصبر هذه ، بأنه لم يجد من ينصره ، ويعاونه ، وكم اشتاقت نفسه إلى النصير ، وإلى ما يعطيه أسباب الأمل ، والنجاة ، والنجاح ، غير أنه بات يصارع وحيدًا ، وعزت عليه أمنياته ، فهو لذلك معذورٌ في لجوئه لصبر اليائس ، وهو إحدى الراحتين . فقال :

وَلَكِنْ إِذَا قَلَّ النَصِيرُ ،وَأَعْوَزَتْ *** دَوَاعِي الْمُنَى – فَالصَبْرُ فِيهِ الْمَعَاذِرَ

فوصل البيت الثالث بالثاني (للتوسط بين الكمالين) ، فالمناسبة واضحة بينهما ، وقد اتفقا في الخبرية ، فقد استدرك ب(لكن) ليوضح أسباب عجزه فجاءت (إذا) الشرطية في قوله (إذا قلَّ النصير ،وأعوزت دواعي المنى) لتربط جواب الشرط (فالصبر فيه المعاذر) بفعله ليؤكد أن الصبر هو النتيجة المحتمة ، لتلك الحالة ، وعطف جملة (وأعوزت دواعي المنى) على جملة (قل النصير) للتوسط بين الكمالين ، لاشتراكهما في الخبرية ، وبين "قلَّ" و" أعوزت" (مراعاة النظير) ، فقد جمع الشاعر بين أمرين متناسبين ، فذكر القلة ،ثم عطف عليها ماهو أشد منها وأقصى على المرء وهو العوز والاحتياج ، وشدة الحاجة إلى الشئ ، فهذان الوصفان متناسبان ، متآخيان في الذهن ، وقد راعى في ذلك

التدرج من الأدنى إلى الأعلى ، وفي هذا البيت أيضًا (تشابه الأطراف) ، حيث ختم البيت بقوله (فالصبر فيه المعاذر) ، وهو ما يناسب الاستدراك بالشرط في أول البيت ، فنهاية البيت مناسبة لأوله[1] . وقدم المسند إليه في قوله (فالصبر فيه المعاذر) لكونه الأصل ، لأنه المحكوم عليه ، ولابد أن يكون مذكورًا قبل الحكم عليه ، وحتى يتمكن الخبر في ذهن السامع ، ففي تقديم المبتدأ (الصبر) تشويق لذكر الخبر ، فمجئ الخبر بعد التشوق إليه ألذ وأوقع في النفس . ولفظ (فيه) تدل على الظرفية ، والتمكن والإحاطة ، فالأعذار المذكورة في أول البيت داخلة في الصبر متمكنة منه فلا لوم عليه ولا شماتة . وعرَّف (الصبر) بالألف واللام للإشارة إلى حقيقة الصبر لتعظيمه ، وتفخيمه ، فاللام ربطت الأسلوب بعضه ببعض فجعلته حيًّا ،وأيقظت ذهن السامع والقارئ ، وحركته ، وزادت همته، وقدم الجاروالمجرور (فيه) العائد على (الصبر) على (المعاذر) لإفادة القصر ، وجاء لفظ (معاذر)على وزن (مفاعل) للمبالغة والتعظيم

وفي البيت الرابع : نجد تَغيُر نبرة الحزن والانكسار إلى نبرة القوة والعناد، فنفس الشاعر القوية المقاتلة التي كم لاقت من الشدائد والأهوال وثبتت ، هيهات أن تستسلم ، وكأن الشاعر يرسل عبر الأبيات إنذارًا إلى أعدائه بألا يشمتوا فيه ، ولا يسعدوا بما حدث له ، فقد يبلغ أمانه ، وآماله ، ويصل إلى غاياته ، وتتولد له أسباب القوة من طريق الآلام الذي يخافه ويكرهه .

فقال: –

فَلاَ يَشْمَتِ الْأَعْدَاءُ بِي ، فَلَرُبَّمَا * وَصَلْتُ لِمَا أَرْجُوهُ مِمَّا أُحَاذِرُ**

فعبر "بالفاء" في قوله (فلا يشمت) للدلالة على السرعة في الرجوع لحالته التي جُبِلَ عليها وهي بسالة المقاتل ، وقوة تحمله ، وعدم انكساره. وقد

---

(١) تشابه الأطراف هو: أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى ، وذلك بأن تكون النهاية علة للأول ، أو دليلًا عليه . انظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي – طبع صبيح بالقاهرة ١٩٥٠م – ج ٦ / ص٢٢

خرج الأسلوب الإنشائي (النهي) في " فلا يشمت الأعداء بي" إلى التهديد والإنذار، وهي إحدى صور النهي التي أشار إليها الزمخشري ، وقام ببيانها العلامة الأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى فقال : أن تدخل أداة النهى على صورة من صور الفعل ، والمراد النهي عن صوره كلها ، ولكنك تعمد إلى صورة قبيحة لتواجه النفس بها فتكون أكثر تأثيرًا وكَفًّا وزجرًا . (١)

فالشماتة خلقٌ سيئ يجب الكف عنه ، وهي من سوء الخلق ، فإذا جاءت من الأعداء كانت فيها فظاظة وغلظة وشدة ، وهذا الأمر صعب وخاصة على الرجل العسكري الذي لا يرضى بالمهانة والشماتة ، فإذا شمل النهي الأعداء فمن باب أولى أن يشمل غير الأعداء ، وقد وجه النهي إلى الشماتة لأن طبع النفوس أن تنفر من هذه الصورة القبيحة. وقد عرَّف نفسه بضمير المتكلم (بي) لإيراده في ذهن المخاطب بضمير المتكلم ، ولاختصاصه بهذا الأمر ، فهو المعني به دون غيره .وقد عبر بالفعل الماضي (وصلتُ) للدلالة على تحقق وقوع الفعل ، فالوصول :هو بلوغ الغاية والانتهاء ،ولذا عبر بالاسم الموصول (ما) في قوله (لما – ومما) أي: الذي أرجوه ، والذي أحذر منه ،للتهويل والتفخيم ، فالمبالغة في (أُحاذر) تناسب التفخيم والتهويل في التعبير بالاسم الموصول (ما) في (مما) ،وقد حذف عائد الصلة في (أُحاذر) أي: أُحاذره للتعميم ، ليشمل جميع ما يحذر منه ،وللتحقير من شأن ذلك الوصف ، وعدم الحاجة إلى ذكره .

وفي البيت الخامس: يتجدد به الأمل ، وتحيا نفسه، ويأمل في زوال ما يعانيه ، وأن يتبدل حظه العاثر ، وينهض به من سقطاته ، وكبوته . فيقول :

فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ *** وَتَنْهَضُ بِالْمَرْءِ الْجُدُودُ الْعَوَاثِرِ

فعبر "بالفاء" في قوله (فقد) للدلالة على تطلعه وأمله في سرعة تحقيق ما يصبو إليه بعودة الأمور إلى نصابها الصحيح ، ومسارها المأمول ،ودخلت

(١) انظر دلالات التراكيب دراسة بلاغية –د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبه – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م – ص ٢٥٨–٢٥٩ .

(قد) على الفعل المضارع (يستقيم) للدلالة على ثقته في تحقق اعتدال الحال مرة أُخرى وإن كان هذا الأمل بعيد المنال ،"فقد"هنا للتقليل ، وجاء لفظ(الأمر) عامًا ليشمل الجميع ، فأي شئ فيه خلل ، يدخل تحت استقامة الأمور ، وبين (الاستقامة) و(الاعوجاج) "طباق " أكد المعنى ، ووضحه في ذهن السامع ، فعندما ذكرت الاستقامة خطر بالبال الاعوجاج ، وكذلك جاء " الطباق " جليًّا واضحًا بين قوله(وتنهض) و(العواثرُ) ،فالضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده ، فالطباق من باب تداعي المعاني ، حيث ينتقل الذهن من النقيض إلى النقيض ، ومن الضد إلى الضد ، فتتضح المعاني ، وتتمكن في النفس ، ووصل بين شطري البيت (للتوسط بين الكمالين) لاتفاقهما في الخبرية ، ووجود المناسبة بينهما ، ولا مانع من الوصل . وحذف (قد) من الشطر الثاني لدلالة (قد) في الشطر الأول عليها .

وفي قوله (وتنهض بالمرء الجدود العواثر) (مجاز عقلي علاقته السببية)، فالجدود(الحظوظ) ليست هي الفاعل الحقيقي للنهوض والفلاح واعتلاء القمة مرة أخرى ، وإنما هي سبب ضمن كثير من الأسباب ، فالاجتهاد والمثابرة ، وثقة الإنسان بربه ،وغيرها من أسباب النهوض من الكبوة مرة أخرى، ولفظ (المرء) هنا عام يشمل الذكر والأنثى ،ولذا جاء معرفًا ب(الألف واللام).

وقد وصف (الجدود) ب(العواثر) مجسدًا للحالة النفسية السيئة التي يعاني منها الشاعر ، وإحساسه بعدم الإنصاف ، وجاء لفظ (عواثر) على وزن (فواعل) بصيغة المبالغة للدلالة على المبالغة في سوء الحظ ، وكثرة التخبط .

وفي قوله (وتنهض بالمرء الجدود العواثر) " استعارة مكنية أيضًا ، حيث شبه "الحظ"بالمنقذ المقدام الشجاع الذي ينقذ من يستنجد به من عثرته ، ثم حذف المشبه به وهو الرجل المنقذ الشجاع ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النهوض والعون لمن يطلب منه على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي البيت السادس : يعلل سبب تفاؤله ، وثقته ، هو أمله في الله سبحانه وتعالى،وأنه بهذا الأمل من الله تعالى تمتلئ نفسه إشراقًا ، وسعادةً ، حتى لو كانت الخطوب والمصائب كالأسود المُكشرة عن أنيابها، فقال :

وَلِي أَمَلٌ فِي اللهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى *** وَيَشْرِقُ وَجْهُ الظَّنِّ وَالْخَطْبُ كَاشِرُ

فوصل هذا البيت بما قبله لوجود المناسبة والغرض الذي يأمله الشاعر ويتمنى تحقيقه وهو انكشاف الغمة ، ورجوع الأمور إلى سابق عهدها .ففي قوله (ولي أملٌ في الله) " كناية عن ثقته وإيمانه الشديد بالله . وقدم الجاروالمجرور (لي) على لفظ (أمل) للاختصاص بطريق التقديم ، فقد قصر الأمل عليه ، فهو المخصوص والمعني بهذا الأمر ، ونكر لفظ (أمل) للتعظيم والتفخيم من شأنه ، وكيف لا والأمل بيد الله سبحانه وتعالى مصرف الأمور ، ومدبر الكون ، والعالم بأحوال العباد والبلاد ، وفي قوله (ولي أمل في الله تحيا به المنى) "استعارة مكنية"، حيث شبه الأماني والأحلام بالإنسان الذي يسري عليه سنة الله في خلقه من الإحياء، الموت والفناء فجسد أمانيه في صورة إنسان يسري عليه ما يسري على البشر ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو لفظ (الإحياء) ،وكأن هذا الأمل هو طوق النجاة الذي يعطيه القوة ، والصبر على تحمل أهوال الغربة والنفي والفراق .وعبر بلفظ "في " في قوله (في الله) للدلالة على التمكن والظرفية ، فالأمل لا يكون إلا في الله سبحانه وتعالى وبالله، ولذا عبر باسمه الأعظم (الله) لاستحضار جلاله وكماله في نفسه ، فتمتليء نفسه بالثقة واليقين في عدل الله تعالى . وعطف الشطر الثاني على الأول ليشارك الشطر الأول في المناسبة والحالة الإعرابية .

وفي قوله (ويشرق وجه الظن) تصوير بديع "بالاستعارة المكنية "، حيث شبه الظنون والأحلام بالإنسان المشرق المتفائل ،ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو(الوجه)على سبيل " الاستعارة المكنية " ، وقد اختار لفظ (يشرق) بدلاً من (يُنير) لأن الإشراق يشمل الإنارة وزيادة ، ففي لفظ (يشرق)

معنى التفاؤل والإشراق والضياء ،وإعطاء البهجة المستمدة من الأمل بالله سبحانه وتعالى . وأيضًا في قوله (ويشرق وجه الظن) كناية عن تحقق النصر ، والظفر والغلبة بالعودة إلى الأهل والوطن . وفي قوله (والخطب كاشر) "استعارة مكنية" أيضًا ، حيث شبه (الخطب) وهو المصائب ، والكوارس ، بالحيوان المفترس المكشر عن أنيابه ،ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو لفظ (كاشر) ، وقد جاء (كاشر) على وزن (فاعل) للدلالة على المبالغة في شدة الخطب وهوله . ولا شك أن الاستعارة قد أثرت المعنى ، وقررته في الأذهان ،ووضحت الصورة وجسدتها لتكون مشاهدة مرئية للعيان ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني : أعلم أن الاستعارة هي أمد ميدانًا ، وأشد افتنانًا ، وأكثر جريانًا ، وأعجب حسنًا وإحسانًا ، وأوسع سعة ، وأبعد غورًا ، وأذهب نجدًا في الصناعة وغورًا، من أن تجمع شعبها ، وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها ... ثم قال ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدًا في صورة مستجدة ، تزيد قدره نبلاً، وتُوجب له بعد الفضل فضلاً ، وأنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة وخلابة مرموقة) [(١)].

<u>اللوحة الخامسة : - بعنوان (حكم وأمثال)</u>

١- إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكَنْ إِلَى اللهِ فِي الَّذي *** يُحَاذِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهْوَ خَاسِرُ

٢- وَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ ***** فَلَيْسَ لَهُ فِي مَعْرِضِ الْحَقِّ نَاصِرُ [(٢)]

٣- وَمَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الزَمَنِ ومُرَّهُ ***** فَمَا هُوَ إِلاَّ طَائِشُ اللُّبِ نَافِرُ [(٣)]

---

(١)انظر أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٤٨-٥٠ .

(٢)المعرض : موضع عرض الشيء ، أي:ذكره وإظهاره، وقلته في معرض كذا ، أي: في موضع ظهوره.انظر المعجم الوجيز ص ٤١٤.

(٣) طائش: صفة من الطيش ، وهو: الخفة ،يقال : طاش عقله :خفَّ وتشتت واللب : العقل ، انظر المعجم الوجيز ص ٣٩٩.- ونافر : جزع شارد متباعد ،يقال (نفر فلان من الشئ : أفزعه، ودفعه عنه ، والمراد :جاهل .انظر المعجم الوجيز ص ٦٢٧.

٤- وَلَـوْلا تَكَـالِيفُ الْسِيَادَةِ لَـمْ يَخِبْ ***** جَبَـانٌ ، وَلَـمْ يَحْـوِ الْفَضِـلَةَ ثَـائِرُ[١]

٥- تَقِـلُّ دَوَاعِـي الْـنَفْسِ وَهْـيَ ضَـعِيفَةٌ **** وتَقْـوَى هُمُـومُ الْقَلْـبِ وَهْـوَ مُغَـامِرُ

٦- وَكَيْـفَ يَـبِنُ الْفَضْـلُ وَالْـنَّقْصُ فِـي الْـوَرَى**** إِذَا لَـمْ تَكُـنْ سَـوْمَ الرِجَـالِ لَمَـآثِرُ؟[٢]

٧- وَمَـا حَمَـلَ الْسَـيْفَ الْكَمِـيُّ لِزِينَـةٍ **** وَلَكِـنْ لِـأَمْرٍ أَوْجَبَتْـهُ الْمَفَـاخِرُ[٣]

٨- إِذَا لَـمْ يَكُـنْ إِلَّـا الْمَعِيشَـةَ مَطْلَـبُ **** فَكُـلُّ زَهِيـدٍ يُمْسِـكَ الـنَّفْسَ جَـائِرُ[٤]

٩- فَلَـوْلاَ الْعُـلاَ مَـا أَرْسَـلَ السَّـهْمَ نَـازِعٌ **** وَلاَ شَـهَرَ السَـيْفَ الْيَمَـانِيُّ شَـاهِرُ[٥]

١٠- مِـنَ الْعَـارِ أَنْ يَرْضَـى الدَنِيَّـةَ مَاجِـدٌ **** وَيَقْبَـلَ مَكْـذُوبَ الْمُنَـى وَهْـوَ صَـاغِرُ

١١- إِذَا كُنْـتَ تَخْشَـى كُـلَّ شَـيْءٍ مِـنَ الـرَّدَى**فَكُـلُّ الَّـذِي فِـي الْكَـوْنِ لِـلنَّفْسِ ضَـائِرُ

١٢- فَمِـنْ صِحَةِ الإِنْسَـانِ مَـا فِيـهِ سُـقْمُهُ **** وَمِـنْ أَمْنِـهِ مَـا فَاجَأَتْـهُ الْمَخَـاطِرُ[٦]

في هذه اللوحة الشعرية : تستمر نبرة التفاؤل والأمل التي تمكنت من نفس الشاعر ، ويُعززها ثقته بالله – سبحانه وتعالى – فهو مصدر إيمانه وآماله، وتتصارع نفسه الأبية مع لحظات اليأس القليلة التي مرت به فتصرعها ، وينقشع غبار اليأس الذي عاناه في الأبيات السابقة فيظهر كالطود الشامخ الذي لا تناله المحن والخطوب ، ونجد أن اللون الزاهي ، والصوت المسيطر على أبيات هذه اللوحة الشعرية المعبرة هو " صوت الحكمة " ، صوت من عركته الأحداث فأثر

---

(١) يراد بالثائر: الذي لا يُبقي على شئ حتى يُدرك ثأره،والمراد به: الوثَّاب الشجاع . انظر المعجم الوجيز ص ٨١.

(٢) وسَوْمً: مصدر سام المشتري السلعة أي: طلب بيعها ، يقال (ساومه مساومة ، وسِوَامًا: فاوضه في البيع والابتياع ،والمراد بالسوم هنا : المطلب . انظر المعجم الوجيز ص ٣٣٠ والمآثر : المكرمات والمفاخر .

(٣) الكميُّ: لابس السلاح ،البطل الشجاع الجرئ المقدام . انظر المعجم الوجيز ص ٥٤٢ ،

(٤) جابر : مغن ، وجبر الفقير واليتيم: كفاه حاجته ،من قولهم جبر الله فلانًا أي : أغناه من فقر . انظر المعجم الوجيز ص ٩١.

(٥) نازع : أي رامٍ ، من نزع الشئ من مكانه نزعًا أي : جذبه وقلعه ، انظر المعجم الوجيز ص ٦١٠ ، وشهر السيف : سلَّه وأخرجه من غمده للقتال ورفعه ، انظر المعجم الوجيز ص ٣٥٣ ،واليمانيُّ : نسبة على غير قياس إلى اليمن لاشتهاره قديمًا بصنع السيوف .

(٦) المخاطر: الأخطار جمع (خطر) وهو الإشراف على الهلاك . انظر المعجم الوجيز ص ٢٠٢،

فيها ، وتأثر بها ،وخرج منها بهذه الخلاصة الذهبية لتجاربه الحياتية ، فاستودعها وأقرها في هذه الأبيات ، فبدأ الشاعر بقوله :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكَنْ إِلَى اللهِ فِي الَّذي *** يُحَاذِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهْوَ خَاسِرُ

فأشار إلى أن مصدر قوة المرء في لجوئه إلى الله –سبحانه وتعالى– وأنه إذا لم يستعن بالله فيما يخشاه من حوادث الدهر فهو بلا ريب سيكون خاسرًا ، وقد جاءت جملة الشرط ب"إذا" بدلاً من "إن"في قوله(إذا المرء ...) ،وب" لم" النافية الجازمة بدلاً من "لا " في قوله (لم يركن...) للدلالة على تحقق الوقوع ، وثبوت الجواب إذا لم يعمل بالشرط ،فالاعتماد والتوكل على الله شرط الفلاح والنجاح في أي أمر ، وبغير ذلك يكون الخسران . وجاء لفظ (المرء) عامًا ليشمل الذكر والأنثى ، لذا عرفه بالألف واللام التي للاستغراق ليشمل الجميع وفي قوله (لم يركن إلى الله) "استعارة تصريحية" ، فأصل الأركان للبنيان ،وقد شبه الالتجاء والاحتماء والتوكل على الله تعالى في كل شيء بالركن القوي بجامع القوة والغلبة في كل ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، واشتق من الركن بمعني الاعتماد والالتجاء " يركن " بمعنى "يلجأ "على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل" يركن"، والاستعارة في لفظ (يركن) أبلغ من لفظ(يعتمد) لأن الركن يحس ، والشيء الحسي أبلغ في التأثير من الشيء المعنوي ،وأرسخ في النفس. وعبر بلفظ (في) في قوله(في الذي يحاذره...)للدلالة على التمكن والظرفية ، وجاء التعريف بالاسم الموصول (الذي) لعدم استحباب ذكر اسمه ، لأن مرارة الألم تعاوده كلما تذكر حاله في منفاه ، وكأنه يتناسى الأمر ولا يتذكر سوى الأمل في الخلاص ، وثبوته له مكرهًا. وللتعميم ليشمل جميع المخاطر والمحاذير التي يخشاها .وجاء جواب الشرط (فهو خاسرٌ) ليوافق جملة الشرط ويطابقها ، فإن الخسران نتيجة طبيعية لعدم تحقق الشرط ،ولذا عبر بالجملة الإسمية (فهو خاسر) بدلاً من الفعلية (يخسر) للدلالة عل ثبوت الخسران واستمراره

وديمومته، وأن هذه الصفة ثابتة لمن لا يعتمد على الله لا تنفك عنه ، لذا اختار اسم الفاعل (خاسر)، وللمبالغة في ثبوت الخسران والهلاك.

وفي هذا البيت أيضًا (إرصاد أو تسهيم) [١]، ويسميه أبو هلال العسكري المتوفى سنة (٣٩٥هـ) " التوشيح" ، وهو أن يكون بداية الكلام ينبئ عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه [٢] ، فعدم الاعتماد على الله ، والالتجاء إليه في كل ما يخافه الإنسان ويحذره يؤدي في النهاية إلى الخسران والضياع . فوقوف القارئ على هذه النتيجة قبل أن يصل إلى نهاية البيت يدل على مقدرة البارودي البلاغية التي جعلت السامع مرهف الحس ، شديد التذوق للكلام الذي يسمعه .

وفي البيت الثاني : يستمر في بيان فضل الصبر في كل ما يصيب الإنسان من مكاره ، وينزل به من شدائد ، فإن صبر مُنح القوة ، وإلا خسر ، ويَصْدُق قول القائل " إن النصر مع الصبر" ،وذلك على طريقة أهل الكلام والمنطق [٣] فيقول:

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ ***** فَلَيْسَ لَهُ فِي مَعْرِضِ الْحَقِّ نَاصِرُ

وقد عطف هذا البيت على ما قبله (للتوسط بين الكمالين) لاشتراكهما في الخبرية ،ولوجود المناسبة بينهما ، فالحديث كله في معرض الحكمة ، والنصح

---

(١) الإرصاد أو التسهيم : هو أن يجعل المتكلم في كلامه ما يدل على نهايته إذا عُرف حرف الروي . انظر الألوان البديعية للدكتور / حمزة الدمرداش زغلول ص١٠٦ – ط ٣ / ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣م

(٢)انظر الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفي سنة ٣٩٥هـ – حققه وضبط نصه د/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩– ص ٤٢٥ .

(٣) المذهب الكلامي هو: أن يُورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام ، ليقوي بها دعواه ، ويبطل دعوى الخصم . انظر الألوان البديعية للدكتور/ حمزة الدمرداش زغلول – ط ٣ – ٢٠٠٢– ٢٠٠٣ – ص ٨٩

من مجرب عركته الحياة ، وعبر ب" إن" في قوله (وإن هو لم يصبر) لتأكيد وقوع الصبر ،فليس أمامه سوى الصبر حتى يستجمع قواه ، ويجد من يدافع عنه وينصره، فقد استعملت (إن) الشرطية في موقعها يقول الخطيب القزويني [١] : وقد تستعمل (إن) في مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة كالتجاهل ... ، لاستدعاء المقام إياه، والنكتة البلاغية في استعمال " إن " في موضع القطع هنا هو (الزجر مع النصح والإرشاد) ، ولذا جاء جواب الشرط قاطعًا جازمًا بنفي النصير والمعين لنفي الشرط ، وعبر بالفعل المضارع (يصبر)، ضرورة تجدد الصبر واستمراره .

وعرَّف المسند إليه بضمير الغائب ، لأن المقام مقام غيبة ،وهو في حكم المذكور ، فالخطاب للجميع وليس لشخص بعينه ، فالنصح والإرشاد للجميع .

وقدَّم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي (وإن هو لم يصبر) لأنه محل الاهتمام ، ولتأكيد الحكم وتقويته ،بسبب تكرار الإسناد .

وعبر ب" على" في قوله (على ما أصابه) للدلالة على استعلاء المحن والمصائب، وتمكنها منه، وشمولها إياه ،فكأن المصائب قد لفته وشملته من جميع الجهات ، ولذا عبر بالاسم الموصول (ما) في قوله (ما أصابه) للتفخيم والتهويل من شأن ما ألم به ،و هنا نلمح صورة بيانية رائعة ، أراد الشاعر أن يجسدها للسامع والقارئ، حيث شبه ما حلَّ به من المحن والمصائب بالسهم النافذ الذي لا يخطئ رميته بجامع الألم والجرح الغائر وإصابة الهدف في كل ، ثم حذف المشبه به ، وهو (السهم) ، ورمز إليه بشئ منلوازمه وهو (الإصابة) على سبيل "الاستعارة المكنية "، ولا شك أن الاستعارة هنا جسدت الأمر المعنوي في صورة حسية مشاهدة ، أكدت المعنى وقوته في ذهن السامع والقارئ .

وقدم " الخبر" الجار والمجرور (له) على اسم ليس (ناصرُ) لإفادة القصر بطريق (التقديم) ، (قصر صفة على موصوف) ، فقصرالنصر والغلبة

---

(١)انظر الإيضاح للخطيب القزويني – الجزء الثاني – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي – الطبعة الثانية – ص١١٩، .

له وليس لغيره إن صبر وتحمل ، وفي هذا الاسلوب تأكيد وإيجاز ومبالغة في بيان فضل الصبر ، ونَُصْرة من يتحلى به ،ولذا عبر باسم الفاعل (ناصر)للدلالة على ثبوت النصر ، وديمومته ، في معرض الحق إن التزم بالصبر، ومن لم يلتزم فليس له معين ولا نصير .

وفي قوله (فليس له في معرض الحق ناصرُ) " استعارة مكنية " حيث شبه الحق وهو أمر معنوي بإنسان له ،سلطة ،وسطوة ،وقوة، ومنعة ، يحتمي به ، ويلجأ إليه كل مظلوم ، وكل صاحب حق لا يستطيع أخذ حقه ، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو (الموطن والمكان) ، وسر براعة الاستعارة هنا التشخيص ، حيث صور الحق وهو أمر معنوي في صورة حسية ، صوره بإنسان قوي يأخذ الحق ، ويرد الظلم ، وينصر المظلوم ، فالاستعارة جعلت الصورة تنبض بالحركة والحياة والمشاعر ، ويصح أيضًا أن يكون (في معرض الحق) (مجاز مرسل علاقته المحلية) ، حيث ذكر المحل وهو (معرض) أي الموطن ، وأراد الحال ، وهم (أهل الحق) . وفي هذا من الإيجاز والمبالغة ما فيه .

وفي البيت الثالث : يبين الشاعر أن خبرة الأيام التي تكتسب من حلوها ومرها هي التي تجعل للمرء ثقل ، وإذا لم يستفد الإنسان من هذه الخبرة فسيكون كالفتى الطائش الجاهل الذي لا يدري من أمور وأحوال الدنيا شئ فيقول :

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الزَّمَنِ ومُرَّهُ *** فَمَا هُوَ إِلاَّ طَائِشُ اللُّبِ نَافِرُ**

فعطف هذا البيت على ما قبله " للتوسط بين الكمالين " ،للاشتراك في الخبرية ، فالمناسبة بينهما ظاهرة ، إذ المسند إليه فيهما واحد ، والمناسبة ظاهرة ، وواضحة في البيتين لتقارنهما في الخيال ، ولذلك عطف البيت الثاني على الأول.

وعرَّف المسند إليه بالموصولية في قوله " ومن لم يذق" لتنبيه المخاطب على الخطأ الذي وقع فيه . وقدم المسند إليه (من) ليتمكن الخبر في ذهن السامع،

لأن في تقديمه تشويق للخبر ، ولاشك أن مجيء الخبر بعد التشويق إليه ، ألذ وأوقع في النفس ، وفيه تأكيد للمعنى المراد تقريره في ذهن السامع .

وعبر بالفعل المضارع المنفي (لم يذق) لاستحضار الصورة في الذهن ، وتجسيدها ، وجعلها مشاهدة مرئية ، لتكون أرسخ في النفس . وقد جسد تلك الحكمة بصورة بيانية رائعة حيث شبه حال الزمان وتقلبه على الإنسان ما بين أفراح وأتراح ، وسرور وأحزان ، بحال الثمر واختلاف أنواعه ما بين حلو ومر بجامع الهيئة الحاصلة من التغير والتقلب وعدم ثبات ودوام الأحوال ، ثم ادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعيرت هيئة المشبه به لهيئة المشبه على سبيل(الاستعارة التمثيلية) [١] ، وقد رشحت الاستعارة بما يلائم المشبه به وهو لفظ (يذق) وهو المناسب للثمر ، وقد جرت الإذاقة مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقال : ذاق فلان المر ، والبؤس ، وأذاقه العذاب [٢]، وعبر بالإذاقة لأن فيها إشعار بشدة الإصابة ، ولأنها أبلغ في الألم وأشد . ولا شك أن الاستعارة التمثيلية من أقوي الاستعارات ، وأعلاها ، وأشدها تأثيرًا، لأنها تنتزع من هيئات مختلفة متعددة ، فتصور المعاني تصويرًا مجسمًا يشاهده الإنسان ويلمسه ، فتؤثر في السامعين ، وتستولى على عواطفهم ، وتحرك مشاعرهم .

يقول ابن يعقوب معللاً سر تسمية الاستعارة التمثيلية بهذا الاسم : " أما تسميته تمثلاً فلأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وقيد على سبيل الاستعارة للاحتراز من الالتباس بتشبيه التمثيل ، إذ من الجائز التساهل بإسقاط لفظ التشبيه ويبقى لفظ التمثيل ،وليطابق الاسم المسمى ، لأن الواقع في هذا المجاز أنه تشبيه

---

(١) الاستعارة التمثيلية هي: اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي . انظر البيان الوافي د/ حمزة الدمرداش زغلول ص ١٠٣–ط١

(٢)انظر البيان الوافي د/ حمزة الدمرداش زغلول ص ١١٦–ط١

حال بأُخرى على وجه المبالغة بإدخال جنس الأولى في الثانية ، ثم يستعمل لفظ الثاني في الأول ، وذلك شأن الاستعارة ، فزيد لتبيين مطابقة الاسم للمسمى " [١]

وقد أدي (الطباق) دوره في بيان تقلب الزمان ، وتغير أحواله على الإنسان ما بين أفراح وأحزان بقوله(حُلْوَ الْزَمَنِ ومُرَّهُ) ، وهو طباق بين اسمين ، جعل المعنى يتمكن في ذهن السامع ، ويستقر في مخيلته ، فالضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده .

وفي الشطر الثاني ينتقل سريعًا "بالفاء " التي للترتيب والتعقيب لبيان الوصف الأمثل لمن لم يتعلم من تجاربه ، وما مرَّ به من صروف الزمان وتقلباته فنجد أسلوب القصر بطريق (النفي والاستثناء) يصور لنا بصورة حاسمة مؤكدة وصف دقيق مؤثر له بقوله (فَمَا هُوَ إِلاَّ طَائِشُ اللُّبِ نَافِرُ) ،فقد قصر ضمير الغائب " هو" على " طائش اللب نافر" ، قصر موصوف على صفة ، وهو من قبيل القصر "الحقيقي الادعائي " ، فقد قصره على الطيش والنفور ، ونفى عنه جميع الصفات الأخرى نفيًا عامًا ،وهذا النفي غير مطابق للواقع ، لأنه له صفات أخرى غير تلك الصفة ، ولكنه نزل تلك الصفات منزلة العدم ، لغرض بلاغي وهو " ادعاء أن هذا الموصوف بلغ الدرجة العليا في الطيش ،والجهل، والجنون ،وعدم الوعي بما حوله،وهذا القصر فيه تجوز وتسامح ، لأن مضمون القصر لا يطابق الواقع الخارجي ، وإن كان مطابقًا لشعور المتكلم ، وما هو كائن في دخيلة نفسه.[٢] ، وقد عرَّف المسند إليه (هو) بضمير الغائب ، لأن المقام مقام غيبة ، ولإفادة التعميم ليشمل كل من لا يكترس بتجاربه ،ولا يضعها نصب عينيه حتى يأخذ منها العبرة ،والخبرة ، فلا يقع مرة أخرى فيما وقع فيه قبلاً ،كما أن في ضمير الغيبة إيحاءات بجهل ذلك الموصوف ، وتحقيره .

---

(١)انظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ج٤ ص١٤٥ لابن يعقوب المغربي –الطبعة الأولى – المطبعة الأميرية – بولاق مصر ١٣١٨هـ

(٢)انظر معاني التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين ج٢–ص١١ .

وقدَّم المسند إليه (هو) (للتشويق إلى ذكر الخبر) ،لأن في الضمير من الإبهام ما يحتاج إلى التفسير والتوضيح ، فإذا ورد المسند (طائش اللب نافر) ، وقام بتوضيح هذا الإبهام ، كان في تقديم المسند إليه تشويق إلى ذكر الخبر ، وتمكن للمعنى المراد التعبير عنه في النفس ، واستقرار له في القلب .

وقد عبر باسم الفاعل (طائش – نافر) للدلالة على ثبات تلك الصفات له واستمرارها ، ودوامها ، وليتناظر ويترادف قوله (طائش) مع (نافر) ، ليؤكد ويثبت بالإيجاب أن من لا يعتبر مما حل به ، ويحتاط لنفسه فهو فارغ العقل مجنون .

وفي البيت الرابع : يبين الشاعر أن طلب السعادة،والسيادة ، والعزة ، ليس بالطلب الرخيص يناله كل إنسان، فثمن السيادة غالٍ ،وللمجد مشقات ومتاعب تتطلب بذل النفس في شجاعة ، ولهذا لم نعلم أن جباناً قد ساد ، وأصبح له فضل، ولكن الفضل والسيادة للشجاع الوثاب إلى قمم المجد . فقال :

وَلَوْلا تَكَالِيفُ السِيَادَةِ لَمْ يَخِبْ ***** جَبَانٌ ، وَلَمْ يَحْوِ الْفَضِلَةَ ثَائِرُ

فقد اقتبس البارودي هذا المعنى من قول المتنبي [١] :

لولا المشقة ساد الناس كلهم **** الجُودُ يَفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

فلم يجدد البارودي في هذا المعنى ، بل أخذه من سابقه ولم يزد عليه شئ ، ففضل السبق في هذا المعنى للمتنبي وليس للبارودي .

وقد عبر بهذا المعنى على طريقة (أهل الكلام) ليقوي بها دعواه ،ويبطل دعوى من يظن غير ذلك . فجاء بمحسن بديعي معنوي وهو(المذهب الكلامي)،لما في هذا الأسلوب من جمال الإقناع العقلي ، والإمتاع النفسي ، فهو يثبت القضية بحجة عقلية ، فلا يكون هناك مجالاً للجدال .

---

(١)انظر ديوان المتنبي – شرح أبي البقاء العكبري – ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقى – وإبراهيم الابياري – وعبد الحفيظ شلبي – الجزء الثالث – ص ٢٨٧ – دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت –لبنان .

وقد جاءت المقابلة واضحة جلية بين قوله(لم يخب جبان) وقوله (لم يحو الفضيلة ثائر) ، فقد أضفت المقابلة على المعنى حسنًا وبهاءًا ، لما لها من أثر جليل في تثبيت المعنى وتقويته ، كما أضفت على القول رونقًا وبهجة ، فقوت الصلة بين الألفاظ والمعاني، ولا شك أن من صفات الأدب الجيد تلاحم أجزائه ، وائتلاف ألفاظه ، حتى كأن الكلام بأسره من شدة تلاحمه كلمة واحدة .

وجاء لفظ (جبان) نكرة " للعميم" ، ليشمل كل متقاعس عن طلب المجد والفضل والسؤدد . وعطف جملة (ولم يحو الفضيلة ثائر) على جملة (لم يخب جبان) " للتوسط بين الكمالين" فالمناسبة بينهما واضحة وهي " التضاد " ليؤكد المعنى ويقويه .

وفي لفظ (الفضيلة) " إيجاز قصر " ، فالفضيلة كلمة جامعة لكل معاني الفضل والغلبة والسؤدد والرفعة ، فالفضيلة تشمل كل خير ، وقد شبه الفضيلة بشئ حسي يجمع ويستحوذ عليه من قبل طالبيه ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو لفظ (يحو)على سبيل "الاستعارة المكنية " .

وقدَّم المفعول (الفضيلة) على المسند إليه (ثائر) لأنها محل الاهتمام ، ولرعاية القافية ، للمحافظة على وزن البيت .

وجاء (ثائر) على وزن (فاعل) للدلالة على الثبات والدوام ، فمن يتحلى بهذه الخصلة لا تنفك عنه ، ولا يتركها ، بل تظل ملازمة ، وملاصقة له ، فلا يمكن أن يتحلى بها بعض الوقت ، ويتركها البعض لآخر ، فهى صفة دوام واستمرار . وقد جاء" لفظ ثائر نكرة " (للتعميم) ليشمل كل شجاع يسعى للفضل والسيادة والمجد .

وقد فصل البيت الخامس عما قبله في قوله :

تَقِلُّ دَوَاعِي الْنَفْسِ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ **** وتَقْوَى هُمُومُ الْقَلْبِ وَهْوَ مُغَامِرُ

للإيضاح بعد الإبهام ، والتفسير بعد الإجمال ،فالبيت الثاني بمنزلة (عطف البيان)، فترك العطف لقوة الربط بينهما ،وهو ما يسميه العلماء ب (كمال الاتصال).

فقد وضح الشاعر مراده وهو أن الإنسان إذا ضعف واستكان قلت مطالبه، وسقطت همته في الحياة، وإذا قوى وغامر اشتدت عزائمه ،وعظمت همته ، ولا شك أن المقابلة البديعة بين شطري البيت وهي (مقابلة ثلاث معاني بثلاث معاني) بين (تقل وتقوى، ودواعي النفس وهموم القلب ، وضعيفة و مغامر) أكدت المعنى ، وقوته في ذهن السامع ،فالمقابلة هنا استدعاها المقام ، وطلبها المعنى ،فأدت دورها المنوط بها في تحسين المعتى أنجح أداء .

وقد عرَّف المسند إليه بضمير الغائب (وهى ضعيفة) ، (وهو مغامر) ، لأن المقام مقام غيبة ،ولتقدم ما يرجع إليه المسند إليه لفظًا ،وهو قوله(النفس) و(القلب) ، وقد عبر بالجملة الإسمية (وهي ضعيفة) و(وهو مغامر) ، للدلالة على الثبوت والاستقرار والدوام، فمن ضعفت نفسه لابد أن يكون قليل الهمة ، ومن قوي قلبه وغامر وركب الصعاب لابد أن يكون قوي الهمة ، فهاتان الصفتان ثابتتان لمن تتأتى منهما . وخصَّ القلب بالذات لأنه مكمن المشاعر والأحاسيس ،فذكر الجزء وهو (القلب) ، وأراد الكل وهو (الجسد كله)فهو من قبيل (المجاز المرسل لعلاقة الجزئية) ، فقد أفاد المجاز هنا المبالغة، وتأكيد المعنى وتقريره في النفس فهو كدعوى الشئ بالبينة والبرهان، ودقة التصوير لمن يركب الصعاب بهمة وعزيمة عالية .

ووصل بين شطري البيت (للتوسط بين الكمالين) ، لاشتراكهما في الخبرية، ووجود المناسبة بينهما ، وهي (التضاد) فالتقابل بين البيتين أكد المعني ، ووضح الصورة بإيجاز " و البلاغة الإيجاز".

ويلخص الشاعر في البيت السادس: قانون الصراع في الحياة ، ويوضح أن التنافس بين الرجال ، وطلب المفاخر هو ما يحدد من يستقر في المنازل الدنيا ، ومن هم أصحاب المقامات الرفيعة فيقول :

وَكَيْفَ يَبِنُ الْفَضْلُ وَالنَّقْصُ فِي الْوَرَى **** إِذَا لَمْ تَكُنْ سَوْمَ الرِجَال الْمَآثِرُ؟

فانتقل من الأسلوب الخبري في الأبيات السابقة إلى الأسلوب الإنشائي المراد منه التصور بطريق الاستفهام المراد منه (النصح والإرشاد) ،و(التنبيه على خطأ وقع فيه المخاطب) وغفل عن هذه الحقيقة الواضحة الظاهرة ، فالاستفهام حمل أكثر من معنى ، مما يدل على ثراء لغتنا العربية .

وقد جاء (بالطباق) البديع بين (الفضل ، والنقص)، لكي يصور ويرسم لنا المقارنة الرائعة بين من علت همته فلا يرضى إلا بالمكارم ، ومن ضعفت همته فرضى أن يكون مع الأصاغر .ولا شك أن الجمع بين الشئ وضده في الكلام يزيد المعنى وضوحًا ، فيكون أكثر استقرارًا في النفس ، هذا إلى جانب ما فيه من إيجاز بديع ، والبلاغة الإيجاز .

و(الفضل) كلمة جامعة لكل معاني الخير ، والمكارم ، وكل ما من شأنه يسمو بالإنسان ويصل به إلى أعلى مكان ، و(النقص) أيضًا كلمة جامعة لكل معاني الهوان ، والذله ، والخنوع ، والخضوع ،وكل ما من شأنه أن يخفض من شأن الإنسان ، ويصل به إلى الحضيض ، ففيها (إيجاز قصر) ،فهذا الوصف جاء في مكانه ، بطريق اللمح والإشارة الكافية المحيطة به من كل الجوانب ، وهذا النوع من الإيجاز هو أعلى طبقات الفصاحة .

وعبر بلفظ (في) ليدل على الظرفية والتمكن ، أي أن هاتين الصفتين متمكنتان في الخلق ، فالإنسان إما أن يكون خانع أو مغامر ولا ثالث لهما ، ففي هذا (صحة التقسيم) حيث جمع أنواع الخلق في هذين الأمرين ، ولا ثالث لهما . ولا شك أن في صحة التقسيم راحة نفسية يجدها القارئ والسامع حينما يجد الكلام قد أحاط بجميع أقسام الشئ .

وعرَّف (الورى) بالألف واللام التي للجنس ليشمل جميع الخلق لاستحالة أن يذكر جميع أفراد الجنس فردًا فردًا .

وعبر" بإذا " الشرطية بدلاً من "إن" في قوله (إذا لم تكن سوم الرجال المآثرُ) ، للدلالة على تحقق الوقوع ، وتمكن تلك الخصال الكريمة من نفس طالب العلا والمكارم ،وقد حذف جواب الشرط والتقدير (لم يظهر الفضل والنفص في الورى) ،وقد دل عليه المذكور في الشطر الأول ، والحذف هنا للاختصار، وللإشارة إلى أن هذا الأمر معروف لا يخفي على ذي عقل ولا يحتاج إلى ذكر .

كما جاء (الإيجاز بحذف حرف)في قوله (لم تكن) ، وأصلها (لم تكون) في موقعه المأمول منه ، والمناسب لحال المتكلم الذي يريد أن يتخطى الكلمات ، ويصل سريعًا إلى علة المفاضلة بين الناس ، والتي من أجلها نُفي ،وحُرم أحبته ،ألا وهي " طلب المآثر والمكارم والشهامة والمروءة التي يتسم بها الرجال ، فحذفت "الواو" للتخفيف ، ولذا قدَّم الخبر (سومَ الرجالِ) على المسند إليه (المآثرُ) لإظهار الاهتمام بالمتقدم ، فهو يريد أن يُفرق بين صنفين من الناس ، (من يطلب الفضيلة ، ومن يرضى بالنقيصة والذلة والخنوع) فعلامة الرجال وخصالهم ومطالبهم التي تميزهم هي محل اهتمام الشاعر . ولذلك اختار لفظ (الرجال) ، لأن الرجولة معناها " كمال الصفات المميزة للرجل ،كالشجاعة ، والعزم ، وقوة الشكيمة ، والتضحية والفداء... إلخ) ،وقد وفق الشاعر في اختيار تلك الكلمة بكل ما تحوي من معاني الرجولة الحقة . ولذا عرَّف الرجال ب" الألف واللام) التي للجنس ، وتسمى "لام الحقيقة" ، للإشارة إلى حقيقة الرجال ، فالرجل الحق هو من يسعى للمكارم ، ويطلب المآثر ، ولا يرضى بالخضوع والخنوع . فتنافس الرجال في شراء المحامد ، وكسب المكرمات يظهر فضلهم ، وبُعد همتهم، كما يُظهر نقص الخاملين وقصورهم .

وفي قوله (إذا لم تكن سوم الرجال المآثر) (تعريض بغيرهم ممن يرضون بالخمول والتقصير والخضوع) ،والتعريض هنا يتناسب مع حال الشاعر وهو

المنفي المشرد البعيد عن الأهل ، المسلط عليه العيون ،فكان التعريض هو الأنسب والأليق لحال الشاعر، وقد جرى على لسانه دون تكلف ، مما عمق أثره في النفوس ، وبلغ في تغلغله في النفوس مالم تبلغه الحقيقة المجردة ، أو المجاز بأنواعه ، أو الكناية ، فقد ساعد الشاعر وأعانه على إخفاء ما يريد ، فلا يفهم مراده إلا من يقصدهم بالتعريض .

و(المآثر) كلمة جامعة لكل الخصال الكريمة من المكارم المتوارثة ، والمفاخر ، والأعمال الخيرة ، والنزاهة ، والشهامة .... إلخ ، ففيها (إيجاز قصر) ، حيث جمع كل هذه الخصال في لفظة واحدة .

وفي البيت السابع : يستمر تدفق أبيات الحكمة الممزوجة بالنصائح الصادرة عن نفس الشاعر الأبية المقاتلة التي لا ترضى بانحطاط الهمة ، أو القبول بالذل ، أو الرضى بالظلم ، فيقرر بداية أن تسلح البطل الشجاع ، وحمله السيف ليس من قبيل حب الزينة والمظاهر ، ولكنه ضروري لطلب الفخر ، وإحراز الفضل ، وكل ما يزهو به الإنسان من دفاعه عن دينه ، أو عرضه ، أو ما يؤمن به من قيم رفيعة فيقول :

وَمَا حَمَلَ الْسَيْفَ الْكَمِيُّ لِزِينَةٍ **** وَلَكِنْ لِأَمْرٍ أَوْجَبَتْهُ الْمَفَاخِرُ

فعبر بطريق (القصر) عن مراده أبلغ تعبير ، وبرأ ساحته من تهمة الرياء والزهو والمظاهر الخادعة ، وقلب اعتقاد السامع ، ووضح بأوجز طريق ، وأبلغ أسلوب أسباب دخوله المعارك وحمله السلاح،فقصر حمل السلاح على ما أوجبته المفاخر،قصر (موصوف على صفة) ،وطريق القصر (العطف ب لكن) ،وهو بحسب اعتقاد المخاطب (قصر قلب) .

وقدَّم المفعول (السيفَ) على المسند إليه(الكميُّ) لأنه محل الاهتمام ، ومظهر القوة والبأس ، وعنوان الشجاعة والإقدام ، فكان تقديمه أولى .

وعرَّف (السيف) ب "الألف واللام" التي للاستغراق ، ليشمل كل ما من شأنه القطع والضرب والطعن، وما يكون وسيلة للدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم ، وبالجملة جميع أنواع السلاح .

وقد كنى الشاعر عن نفسه بقوله(الكميُّ) أي الشجاع المدجج بالسلاح ، (كناية عن موصوف) ، فقد ذكر أبرز صفاته وهي الشجاعة والإقدام ،ففي الكناية رمز إلى القوة ، والجلد ،وقد عرضت المعنى بصورة محسوسة زادته وضوحًا ، ومبالغة ، وإيجازًا في العبارة .

وفي لفظة (الكمي) أيضًا "تجريد " ، فقد أراد الشاعر ب " الكمي " نفسه ، وقد انتزع من نفسه " شجاعًا مدججًا بالسلاح " ، للمبالغة في شجاعته وقوته ، وكأنه لفيض شجاعته خرج عنه شجاع آخر مثله في الشجاعة والإقدام ، وفي هذا دلالة على تمكن البارودي من وصف نفسه بما يريد دون حرج ، ولا عجب فهو الفارس المغوار ذو البأس الشديد على أعدائه ،وهو الملقب ب " رب السيف والقلم " .

ونكَّر لفظ (زينة) "للتعميم" ، ليشمل جميع أنواع الزينة ، داخلية ، كالزهو بنفسه ،والإحساس بالامتلاء والغرور ، والإحساس بالعظمة والقوة ،وخارجية كحملها أمام الناس تكبرًا ، واختيالاً ، وإخافة وإرهابًا ، و "للتعظيم من شأنها " .

وكذلك نكَّر لفظ "أمرٍ" للتعظيم من شأنه .

<u>وفي البيت الثامن</u> : يستنكر الشاعر أن تنحط همة الإنسان في الحياة ،ويكون الاكتفاء بما يمسك الرمق ، ويحفظ العيش هي جلَّ همته ، وأقصى غايته ،فإن كان كذلك أغناه القليل الزهيد من الطعام والشراب ، وكفته عيشته المتدنية .

فيقول :

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْمَعِيشَةَ مَطْلَبُ **** فَكُلُّ زَهِيدٍ يُمْسِكَ النَّفْسَ جَائِرُ

وهذا المعنى قريب من قول امرىء القيس الكنديّ : (١)

فلو أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ***** كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ- قَلِيلٌ من المالِ .

فقد اقتبس البارودي هذا المعنى ولم يجدد فيه ، ولم يزد عليه شئ ، ففضل السبق في هذا المعنى لامرىء القيس وليس للبارودي .

وفي قوله (إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْمَعِيشَةَ مَطْلَبُ) كناية عن ضعف العزيمة والكسل .

وقد فصل هذا البيت عما قبله لأنه بيان وإيضاح لمفهوم البيت السابق ، وتفصيل لما أجمله ،فهو يفصل ويبين أنه لو كان سعيه لطلب العيش فقط لكفاه القليل منه ، ولمْ يسَّعَ للمجد ولا لطلب المفاخر ، ولم يحمل السيف ، ويُعرض نفسه للمخاطر والأهوال . ولذا عبر ب" إذا" الشرطية لتأكيد مراده ، وقد جاء جواب الشرط سريعًا ب (الفاء) التي للترتيب والتعقيب ، لسرعة بيان مراده .

فطلب الكفاية ليس مراد الشاعر وأمله ، وليس هذا طبعه ، فهو الفارس الشجاع الذي يتطلع إلى العلا والمكارم، ويخوض غمار المعارك لينعم بالنصر والظفر على الأعداء ، فطلب أقل القليل ليس غايته .

واختار لفظ (زهيد) للدلالة على أقل القليل ، فهو كناية عن صفة "القلة " ،ونكره للعميم ،ولذا اختار لفظ "كل " الذي يدل على العموم ، وعبر بالفعل المضارع (يمسك النفس) لاستحضار الصورة في الذهن ،وفي هذا صورة بيانية رائعة جيث شبه ما يكفي الحاجة، ويسد الرمق ، بإمساك النفس ، ومنعها عن طلب الحاجة ، فهي مأخوذة من الإمساك أي الامتناع بجامع الكفاية في كل ثم حذف المشبه ، وتناسى التشبيه ، وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعار المشبه به للمشبه ، واشتق من الإمساك يمسك بمعنى يمنع ، على سبيل الاستعارة (التصريحية التبعية في الفعل (يمسك) .

---

(١)انظر ديوان امرئ القيس –تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ص ٣٩ –الطبعة الخامسة –دار المعارف .

ويجوز أن يكون قوله (يمسك النفس) كناية عن قناعة النفس بالشئ القليل فليس لها أي طموح ،فالقليل يكفيها ويشبعها ويجعلها تمتنع عن طلب الحاجة ، فهي كناية عن "صفة " .

وقد عبر باسم الفاعل (جابر) بدلاً من الفعل المضارع (يجبر) للدلالة على ثبوت هذه الصفة ، وديمومتها لمن ليس لديه طموح ، ومن يرضى بالكفاية ، وليس لديه غاية وهدف .

وفي البيت التاسع: يُشيد الشاعر بطلاب المجد والعلا ، الذين لا يهابون الموت ، ويشهرون سيوفهم في وجه أعدائهم ، ولا يبغون إلا طلب العلا والسيادة، ولا عجب في ذلك فهو منهم . فيقول :

فَلَوْلاَ الْعُلاَ مَا أَرْسَلَ السَّهْمَ نَازِعٌ **** وَلاَ شَهَرَ السَيْفَ الْيَمَانِيُّ شَاهِرُ

فقد انتقل سريعًا من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي بالتمني ب(لولا) المراد منها التنديم على ترك الفعل ، على معنى (ليتك أرسلت السهم ، وليتك شهرت السيف) ، فالمراد من التمني هنا هو حصول الندم لكل من كسل عن طلب العلا ، ولم يتسلح بأدوات المجد ، وعوامل العزة والمنعة . وعبر بالفعل الماضي (أرسل – شهر) للدلالة على تحقق الوقوع ، وجاء باسم الفاعل (نازع – شاهر) ، للدلالة على ثبات تلك الصفات لكل من يداوم على تلك الأفعال ، وقد وصف "السيف " ب" اليماني" كناية عن شهرته .

وبين (شهر) في أول الشطر الثاني و(شاهر) في آخر البيت (رد العجز على الصدر) ،في الشعر بين كلمتين مكررتين ، وبينهما أيضًا (جناس اشتقاق) ،ولا شك أن في (رد العجز على الصدر وجناس الاشتقاق) تأكيد للمعنى ، ،وتحسين للألفاظ ،فقد أضفا موسيقى لفظية رائعة أخذت الألباب ، وكست البيت رونقًا وبهاءًا .

وفي البيت العاشر: يُعَرضُ الشاعر بالعزيز الشريف الذي يرضى بالعيشة الدنية المشوبة بالذل والعار ، ويظل يخدع نفسه بقبول الأماني الكاذبة ، والأمال

الباطلة ، وهو ذليل راضٍ بالظلم ، فإن ذلك عارٌ عليه ، ونقيصة في حقه . فنراه يقول :

مِنَ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى الدَنِيَّةَ مَاجِدٌ **** وَيَقْبَلَ مَكْذُوبَ الْمُنَى وَهْوَ صَاغِرُ

فجاء الطباق بين (ماجد) في الشطر الأول ، و(صاغر) في الشطر الثاني، ليؤكد المعني ، ويقرره في ذهن السامع ، لتتضح الصورة وتستقر في النفوس ، ولذا عبر بالفعل المضارع (يرضى الدنية– ويقبل مكذوب المنى) لاستحضار هذه الصورة الذميمة المنفرة في ذهن المتلقي لتجنبها . وبين "يرضى " و " يقبل " (تناسب وتوافق) جعل الكلام سلسًا ، فكل لفظ سكن إلى جاره ، كعقد اللؤلؤ المتناسب الحبات ، فالرضا بالدنية أسلمه إلى قبول الأماني الكاذبة ، وهذا الرضا ،وذلك القبول جعله بلا شك صاغر ذليل . ووصل بين الشطرين للاشتراك في الحكم الإعرابي ، فقد عطف (يقبل) على (يرضى) لتأخذ حكمها الإعرابي .

وقد عرَّف المسند إليه بضمير الغائب (وهو صاغرٌ) ، لأن المقام مقام غيبة، ولتقدم ما يرجع إليه المسند إليه لفظًا ،وهو قوله(ماجدٌ)، وقد عبر بالجملة الإسمية (وهو صاغرٌ) ، للدلالة على الثبوت والاستقرار والدوام، فمن ضعفت نفسه ورضي بالدنية ، وقبل الأماني الكاذبة ، لابد أن يكون صاغر ذليل .

ثم يوضح في البيت الحادي عشر :أن على صاحب النفس الكبيرة ألا يخاف من شئ ، فإذا كان يهيب أن يعمل أي شئ خوفًا من أن تكون عاقبته الموت ، فكل الذي من حولنا في الكون قد يضر ، وقد يؤدي إلى الهلاك . فيقول :

إِذَا كُنْتَ تَخْشَى كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الرَّدَى ***** فَكُلُّ الَّذِي فِي الْكَوْنِ لِلنَّفْسِ ضَائِرُ

فيأتي الالتفات ليجذب انتباه السامع ، وينبه الغافل إلى حقيقة هامة ، وهي وجوب التوكل على الله تعالى ، وترك الأمر كله لله ، فهو مدبر الكون ،وأن يعمل الإنسان قدر استطاعته ، ولا يخشى إلا الله تعالى ، وقد جاء هنا الالتفات من(الغيبة) في البيت السابق إلى (الخطاب) في هذا البيت ، فمقتضى السياق أن يقول (إذا كان يخشى) ، ولكنه عدل من الغيبة إلى الخطاب فقال (إذا كنت تخشى) ،

ليخرج الكلام مخرج النصيحة للعامة ، فهو يعيب على الكريم رضاه بالعيشة الدنية ، وقبوله الذل ، ويريد نصحه بعدم الخوف ، فإذا تقاعس عن فعل الشئ خوفًا من الهلاك ، فكل ما حوله في الحياة قد يؤدي إلى الهلاك ، فالتفت من الغيبة إلى الخطاب ، لكونه في مقام نصح وإرشاد ، والنصيحة تعم الجميع .

والبيت كله جملة شرطية مصدرة ب "إذا " التي تفيد تحقق وقوع الشرط ، وقد جاءت هنا على حقيقتها ،فإن الإنسان فُطِرَ على الخوف من المخاطر والمهالك ، ومجاهدة النفس على الخوض في غمارها هو الذي يميز الشجاع من الجبان ، ولذا يبين الشاعر بطريقة أهل الكلام ،وعلماء المنطق أن الضرر محيط بالإنسان من كل جانب ، فإذا خاف من كل شئ فلن يفعل شيئًا .

وقد عبر ب" كل " للدلالة على العموم والشمول لكل أنواع الهلاك ، ولذا جاء لفظ " شئ " نكرة للتعميم والتكثير ، وقد عطف الشطر الثاني على الأول "بالفاء " التي للترتيب والتعقيب ، ثم أعقبها بلفظ العموم " كل " للسرعة في تعميم مخاطر الكون ، فلا استثناء ، ولذا عبر ب" في" في قوله (في الكون) ، للدلالة على التمكن والظرفية ،وقد عرَّف المسند إليه بالاسم الموصول " إذا " "للإيماء إلى وجه بناء الخبر "، فإن في صلة الموصول ما يدل على الخبر ، فلو تأمل السامع الموصول وصلته في أول الشطر عرف الخبر ، وهو قوله (ضائرُ) ، وقد قدم الجار والمجرور (للنفس) على (ضائرُ) لأنها محل الاهتمام ، وموضع عناية الشاعر ، فهي التي يشحذها الشاعر لنيل المكارم ، وهي التي يحثها على عدم الخضوع والخنوع ، وهي التي يطلب منها الصبر على المكاره ، فهي موضع اهتمامه ، لذا قدمها .

<u>وفي البيت الثاني عشر</u> : يقرر الشاعر بحكمته الراسخة التي تدل على حنكته ، وخبرته بالحياة ،أن الإنسان قد يغتر بصحته ، فيأتيه المرض من حيث يظن الصحة ، وقد يأتيه الخطر والهلاك من حيث يظن السلامة والأمن .

فيقول :

فَمِنْ صِحَةِ الإِنْسَانِ مَا فِيهِ سُقْمُهُ **** وَمِنْ أَمْنِهِ مَا فَاجَأَتْهُ الْمَخَاطِرُ

فيدلل سريعًا على ما قاله في البيت السابق ، ويؤكده بتلك الحكمة الرائعة التي توجز كل كلام ، وتدلل بأبلغ برهان على صدق كلام الشاعر ، ونصيحته التي لخص فيها كل تجاربه ، وخبراته في الحياة، فعبر" بالفاء " التي للترتيب والتعقيب، فهي المناسبة للمقام .

وقد أكد (الطباق) البديع بين (صحة – وسقم) وبين (أمن – ومخاطر) المعنى المراد في براعة ويسر ، ورسم الصورة أمام السامع والقارئ ، مما كان له أكبر الأثر في تعميق الفكرة ، وإثارة الشعور والوجدان ، فانتقال النفس من النقيض إلى النقيض ، ومن الضد إلى ضده ،جعل المعني يتمكن في النفس ، وتعم الفائدة التي هي مراد الشاعر .

وقد عبر" بما" في قوله (ما فيه) ، وقوله (ما فاجأته) للتفخيم والتهويل ، وجاء لفظ (في) في قوله (ما فيه) ليدل على التمكن والظرفية . وقد أضاف (السقم) إلى الضمير (الهاء) العائد على الإنسان ، للدلالة على تمكنه منه ، وعدم انفكاكه عنه .

وعطف الشطر الثاني على الأول (للتوسط بين الكمالين) لاشتراكهما في الخبرية، وجاء لفظ " مخاطر " على وزن "مفاعل " للمبالغة في كثرة المخاطر ، وتنوعها .

اللوحة السادسة :- بعنوان (فخر واعتزاز).

١- عَلَى طِلاَبُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ **** وَلاَ ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ (١)

٢- فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ الْعَرِيكَةِ خَائِبُ **** وَلاَ كُلُّ مَحْبُوكِ التَّرِيكَةِ ظَافِرُ (٢)

٣- فَمَاذَا عَسَى الأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا **** عَلَيَّ ، وَعِرْضِي نَاصِعُ الْجَيْبِ وَافِرُ؟ (٣)

٤- فَلِي فِي مُرَادِ الْفَضْلِ خَيْرُ مَغَبَّةٍ **** إِذَا شَانَ حَيًّا بِالْخِيَانَةِ ذَاكِرُ (٤)

٥- مَلَكْتُ عِقَابَ الْمُلْكِ وَهْيَ كَسِيرَةٌ **** وَغَادَرْتُهَا فِي وَكْرِهَا وَهِيَ طَائِرُ (٥)

---

(١)الطِلابُ : الطلب ، يقال طلبه طلبًا: أراده ، وطِلابًا :طلبه منه. انظر المعجم الوجيز ص ٣٩٢.- وعارضتني: اعترضتني وحالت دون مطلبي ، واعترض له :منعه. انظر المعجم الوجيز ص ٤١٣ .والمقادرُ: هو قدر الله وقضاؤه وحكمه، والقَدرُ: القضاء الذي يقضي به الله على عباده. انظر المعجم الوجيز ص ٤٩٢

(٢)العريكة : النفس والطبيعة ، يقال : هو لين العريكة : سلس منقاد . انظر المعجم الوجيز ص ٤١٦. ومحبوك: متقن محكم ، يقال : حبك الشئ حبكًا : أحكمه ، وحبك الثوب : أجاد نسجه ، وحبك الأمر : أحسن تدبيره ، وهواسم مفعول من الحبك (بفتح فسكون) ، وهو الشدّ والإحكام . انظر المعجم الوجيز ص ١٣٢ . والتريكة : بيضة الحديد للرأس ، كالخوذة (بضم الخاء وسكون الواو) ، انظر المعجم الوجيز ص ٧٤.وحبك التريكة : كناية عن القوة والشجاعة ، وكمال الأهبة والاستعداد.

(٣)تقوَّل عليه : قولاً: كذب عليه . انظر المعجم الوجيزص ٥٢٠. – والعِرض : النفس ، أو جانب الرجل الذي يصونه من نفسه وحسبه أن ينتقص ، أو هو موضع المدح والذم من الإنسان ، أو ما يفتخر به من حسب وشرف وخلائق محمودة . انظر المعجم الوجيز ص ٤١٤. – وناصع الجيب : نقي خالص . انظر المعجم الوجيز ص ٦١٩. – ووافر : تام . انظر المعجم الوجيز ص ٦٧٦.

(٤)مغبة الشئ : عاقبته وآخره . انظر المعجم الوجيز ص ٤٤٥. وشانه بكذا: انتقصه وعابه . انظر المعجم الوجيز ص ٣٥٧.

(٥)العقاب : طائر من جوارح الطير ، قوي المخالب ، حاد البصر . انظر المعجم الوجيز ص ٤٢٦. – وكسيرة : مكسورة . انظر المعجم الوجيز ص ٥٣٤. – وغادرتها : تركتها .انظر المعجم الوجيز ص ٤٤٦.

٦- وَلَـوْ رُمْتُ مَـا رَامَ امْـرُؤٌ بِخِيَانَـةٌ **** لَصَـبَحَنِي قِسْطٌ مِـنَ الْمَـالِ غَـامِرُ (١)

٧- وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي الْكَرِيمَةُ سَوْأَةٌ **** تُعَـابُ بِهَـا ، وَالـدَّهْرُ فِيـهِ الْمَعَـايِرُ (٢)

٨- فَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَـالَ يَنْفَـعُ رَبَّـهُ **** إِذَا هُـوَ لَـمْ تَحْمَـدُ قِـرَاهُ الْعَشَـائِرُ (٣)

٩- فَقَدْ يَسْتَجِمُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبُ **** وَقَـدْ لاَ يَكُونُ الْمَـالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرُ (٤)

١٠- وَلَـوْ أَنَّ أَسْـبَابَ السِـيَادَةِ بِـالْغِنَى **** لَكَـاثَرَ رَبَّ الْفَضْـلِ بِالْمَـالِ تَـاجِرُ

١١- فَلاَ غَرْوَ أَنْ حُزْتُ الْمَكَارِمَ عَارِيًا *** فَقَدْ يَشْهَدُ السَيْفُ الْوَغَى وَهْوَ حَاسِرُ (٥)

١٢- أَنَا الْمَرْءُ لاَ يَثْنِيهِ عَنْ دَرَكِ الْعُلاَ **** نَعِيمٌ ،وَلاَ تَعْدُو عَلَيْهِ الْمَفَاقِرُ (٦)

١٣- قَنُـولٌ وَأَحْـلاَمُ الرِجَـالِ عَـوَازِبٌ **** صَـئُولٌ وَأَفْـوَاهُ الْمَنَايَـا فَـوَاغِرُ (٧)

---

(١) رمت: أردت وطلبت . انظر المعجم الوجيز ص ٢٨٣. -وصبحني : جاءني صباحًا ، والمراد : سارع إليَّ. والقسط : الحصة والنصيب .وغامرُ: كثير . انظر المعجم الوجيز ص ٤٥٤.

(٢)السوأة : العيب والنقيصة . انظر المعجم الوجيز ص ٣٢٦.والمعـايـر : المعايـب .انظـر المعجم الوجيز ص ٤٤٣.

(٣)ربَّه : صاحبه . والربُّ: المالك والسيد والمدبر. انظر المعجم الوجيزص ٢٥٠ - والقرى : ما يقدم إلى الضيف من طعام وشراب ، والمراد وجوه الإنفاق . انظر المعجم الوجيز ص ٥٠٠.

(٤)يستجم : يجتمع ويكثر ، وجمَّ جمومًا: اجتمع وكثر .انر المعجم الوجيز ص ١١٨.

(٥)لا غرو: لا عجب . انظر المعجم الوجيز ص ٤٥٠ - وعاريًا : المراد بلا مال . والـوغى : الحرب لما فيها من الصوت والجلبة .انظر المعجم الوجيز ص ٦٧٥. وحاسر: مكشـوف ، مجرد من غمده ،وانحسر : انكشف . انظر المعجم الوجيز ص ١٥٠.

(٦)لا يثنيه: لا يصرفه ولا يكفه .انظر المعجم الوجيز ص ٨٨. - والمفاقر : وجـوه الفقـر ، وأنواعه وأحواله ، والفقر : العوز والحاجة . انظر المعجم الوجيز ص ٤٧٧.

(٧)قئول : لسن فصيح ، والمقوال: الكثير القول . انظر المعجم الوجيز ص ٥٢٠. والأحـلام : العقول . وعوازب : غائبة ذاهبة ، يقال : عزب الشئ عزوبًا: بَعُدَ وخفي . انظـر المعجـم الوجيز ص ٤١٦. - وصئول : فاتك مقدام شجاع ، ويقال هو ذو صـولة: أي: مقـدام. انظر المعجم الوجيز ص ٣٧٤. - وفواغر : مفتوحة ، جمع فاغرة ، يقال فغر فمه فغـرًا: فتحه . انر المعجم الوجيز ص ٤٧٧.

١٤- فَلاَ أَنَا إِنْ أَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ **** وَلاَ أَنَا إِنْ أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ بَاسِرُ (١)

١٥- فَمَا الْفَقْرُ إِنْ لَمْ يَدْنَسِ الْعِرْضُ فَاضِحُ **** وَلاَ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَشْرُفِ الْمَرْءُ سَاتِرُ

١٦- إِذَا مَا ذُبَابُ السَّيْفِ لَمْ يَكُ مَاضِيًا **** فَحِلْيَتُهُ وَصْمٌ لَدَى الْحَرْبِ ظَاهِرُ (٢)

١٧- فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ **** تَقَاسَمَهَا فِي الْأَهْلِ بَادٍ وَحَاضِرُ (٣)

١٨- فَكَمْ بَطَلٍ فَلَّ الزَّمَانُ ثُبَاتَهُ **** وَكَمْ سَيِّدٍ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ

١٩- وَأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلاَلَةٌ؟ **** وَأَيُّ جَوَادٍ لَمْ تَخُنْهُ الْحَوَافِرُ؟ (٤)

في هذه اللوحة الشعرية الرائعة ينتقل بنا الشاعر في براعة ومقدرة فائقة إلى عرض الفخر بنفسه وأصله ، ويقرر أنه من طلاب المجد والعز من موطنه ومصدره ، ولا لوم عليه إذا حال بينه وبين تحقيق ما يريد من تقدم ورقي قدر الله تعالى وقضاؤه . فيقول :

عَلَيَّ طِلاَبُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ **** وَلاَ ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ

فبدأ الشاعر بمخاطبة نفسه وإلزامها طلب المعالى والعز والمجد من موطنه، بقوله : (عليَّ طلاب العز) فقدم الجار والمجرور (عليَّ) على المسند إليه (طِلاَبُ العِزِّ)للاختصاص ، فقد قصر طلب العز والمكارم عليه وحده دون غيره ، (قصر صفة على موصوف) ، ثم زاد في إلزام نفسه بما يلزم إجهادها وصبرها وتحملها بأن جعل طلب المكارم من منبعها وموطنها ، ولذا آثر لفظ

---

(١)أدناني : قربني . والوجد: الغِنَى ، يقال فلان وُجْدًا ،وجِدَةً: صار ذا مالٍ. انر المعجم الوجيز ص ٦٦٠. وأقصاني : أبعدني . وباسِرُ: كالح الوجه عابس مبتئس.انظر المعجم الوجيز ص ٥٠.

(٢)ذباب السيف : حدَّه . انظر المعجم الوجيز ص ٢٤٣.-وماض : قاطع . ووصم : عيبٌ وعار . انظر المعجم الوجيز ص ٦٧٢.

(٣)فَلَّ: منهزم . يقال انفل القوم أي : انهزموا . انر المعجم الوجيز ص ٤٨١. والرزية : المصيبة . انظر المعجم الوجيز ص ٢٦٣.

(٤)الحسام :السيف القاطع . والكلالة : مصدر كلَّ السيف ونحوه أي : لم يقطع لتتلمه ، وتفلل مضاربه . انظر المعجم الوجيز ص ٥٣٩.

(عليَّ) للدلالة على الاستعلاء والتمكن ،وهذا يدل على شجاعة الشاعر ، وخوضه الغمرات في سبيل الفوز بالمجد ، لا يثنيه شئ إلا قدر الله وقضاؤه ، وهومن قبيل القصر(الحقيقي الادعائي) ،لأن ما عدا المقصور عليه موجود حقيقة ، ولكنه نزله منزلة العدم مبالغة في كمال تلك الصفة فيه . وقد عبر صيغة المبالغة (طِلابُ) على وزن (فِعال) للمبالغة في الطلب ، وتكريره ، والسعى الدؤوب في تحصيله .

وفي قوله (عَلَىَّ طِلاَبُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ) ،صوره بيانية رائعة ، حيث صور العز والمجد والشرف وهو أمر معنوي ، صوره بشئ مادي ملموس له حيز ومكان ومنبع يأخذ منه ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو المكان والاسسقرار في قوله (من مستقره) على سبيل "الاستعارة المكنية " ،وكذلك قوله (إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ) ، حيث شبه المقادير، وهو القضاء الذي يقضي به الله على عباده وجمعها (أقدار) ، و(مقادير) وهو أمر معنوي، صوره بشئ حسي مادي يعترض الإنسان ، ويقف حائلاَ دون تحقيق المراد ، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهوقوله (عارضتني) على سبيل (الاستعارة المكنية) ولا شك أن التخييل والتشخيص للأمور المعنوية (العز) ، (القدر) ، وإبرازها في صورة محسوسة ملموسة تنمي ملكة الخيال لدى السامع والقارئ ، وتجعل المعنى يستقر في نفس المتلقى ، وتجعل الصورة أجلى وأوضح وأكثر تعبيرًا عن مراد الشاعر . وقدم جواب الشرط (وَلاَ ذَنْبَ لِي) على جملة الشرط (إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ) لأنه محل الاهتمام ، فهو يريد أن يسارع بنفي الذنب والعيب عنه إن أخفق في مبتغاه ، وما يسعى إلى تحقيقه ، وقد عبر بـ(إن) للشك في تحقق الاعتراض ،والتقليل من عدم تحقيق مسعاه ، على الرغم من وجود ما يعوق سعيه للمجد بالفعل ، وهو نفيه ،وبُعده عن الوطن والأهل ، وكأنه يريد أن يقول : أنا أهل للمجد والعز والشرف رغم النفي والتشريد ، وكل هذه العوائق والاعتراضات التي تعترض طريقي إلا أن تاريخي ناصع ،ولذا عبر

بالفعل الماضي (عارضتني) لتحقق وقوع الفعل ، فالاعتراض حدث بالفعل بالنفي ، والبعد عن الوطن .

وهذا البيت مقتبس من قول أبي فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧هـ [١]:

عليّ طلاب العز من مستقره **** ولا ذنب لي إن حاربتني المطالبُ

ولا شك أن البارودي كان متأثرًا بمن سبقوه من الشعراء العظام ، فقد استقى الكثير من معانيهم ، وضمنها الكثير من شعره ، وقد وضح هذا الأمر جليًا في الأبيات السابقة ، وقد أشرت إلى مواضع الاقتباس فيها ، والحق أن البارودي لم يجدد في المعاني ، ولم يزد عليها شئ ، ففضل السبق في هذا المعنى لأبي فِراس الحمداني وليس للبارودي .

وفي البيت الثاني : يقرر الشاعر أن المقادير قد تسعد الضعيف فيفوز ، وقد تعترض الشجاع فيشقى ويخسر . فيقول :

فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ الْعَرِيكَةِ خَائِبُ **** وَلَا كُلُّ مَحْبُوكِ التَّرِيكَةِ ظَافِرُ

فجاء هذا البيت بيان وإيضاح لما أبهم في الشطر الثاني من البيت السابق في قوله (لَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ) ، فقد فسر معارضة المقادير بهذا البيت السابق ذكره ، وقد قدم أداة النفي (ما) على لفظ (كل) ليفيد (سلب العموم والشمول) ، عما أُضيف إليه لفظ (كل) ، فيقتضي ذلك : ثبوت الفعل لبعض ، ونفيه عن بعض ،فالخيبة ليست ثابتة للضعيف ، فقد تسعده الأقدار ، والظفر ليس ثابت للشجاع المقدام ، فقد تعترضه المقادير فيشقى ، وهكذا ليس هناك أمر ثابت، أو حقيقة مسلم بها ، فرد الأمر كله لله ، وتوكل عليه حق توكله ، وفوض أمرك في كل شيء لله تعالى ، فهو مدبر الأمور ، وهو العالم بأحوال العباد . ولذا جاء لفظ (خائب ، وظافر) على وزن فاعل مسبوقًا بالنفي ، للدلالة على نفي الثبوت

(١)انظر ديوان أبي فِراس الحمداني – شرح الدكتور/ خليل الدويهي – ص ٤١ –دار الكتاب العربي .

والدوام لهما .وقد جاءت المقابلة بين الشطرين لتؤكد المعنى ،وتمكنه من نفس المتلقي ، وتحقق مراد الشاعر ، وهي مقابلة (ثلاثة بثلاثة) .

وفي قوله (فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ الْعَرِيكَةِ خَائِب)" كناية عن الضعف ، وفقد الإرادة والهمة " ، وفي قوله (وَلاَ كُلُّ مَحْبُوكِ التَرِيكَةِ ظَافِرُ) " كناية عن القوة والشجاعة ، وكمال الأهبة والاستعداد" ، وهما كناية عن " صفة " ، ولا شك أن الكناية قد عبرت عن مراد الشاعر بإيجاز بديع ، وقد أغنت الشاعر عن سرد الألفاظ الكثيرة التي تعبر عما يريد الشاعر الإفصاح عنه ، وقد أعطت المعنى المراد مصحوبًا بالدليل . وقد وصل بين شطري البيت للتوسط بين الكمالين لاشتراكهما في الخبرية ، ووجود المناسبة بينهما وهي (التضاد) .

وبين (العريكة) في الشطر الأول ، و(التريكة) في الشطر الثاني (جناس لاحق) لاختلافهما في حرفين متباعدين في المخرج وهما : (العين) و(التاء) ، فالعين من وسط الحلق ، والتاء من طرف اللسان ، وقد أكسب الجناس الكلام حسنًا وبهاءً، وجعل السامع يقبل نحوه ، ويصغي إليه . والجناس هنا قد طلبه المعنى ، واستدعاه المقام ، وقد جاء عفو الخاطر من غير تكلف .

<u>وفي البيت الثالث</u>: يعقب كلامه الخبري بالأسلوب الإنشائي بطريق الاستفهام الإنكاري المراد منه " التوبيخ " ،ويتساءل الشاعر عن الذنب الذي ارتكبه ، والنقيصه التي فعلها ، إذا لم يبلغ مأربه ، ولم يصل إلى مبتغاه ، وهوالذي لم يألوا جهدًا ، ولم يدخر وسعًا في بلوغ المجد ، والرفعة والسؤدد ، ويتساءل بالأسلوب الإنكاري فما عسى أن يتكذب به أعداؤه عليه ، وهو لم يفعل شيئًا يعيبه . فيقول :

فَمَاذَا عَسَى الأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا **** عَلَيَّ ، وَعِرْضِي نَاصِعُ الْجَيْبِ وَافِرُ؟

فقدم المسند إليه (الأعداءُ) لأنه محل الاهتمام ، فهم المعنيون بالخوض في سيرته ، والتقول عليه ، وإلصاق النقيصة به .

وفي قوله (وَعِرْضِي نَاصِعُ الْجَيْبِ وَافِرُ)(استعارة مكنية) ، حيث شبه العرض والشرف بالثوب الناصع البياض الذي لا تشوبه شائبة ، ثم حذف المشبه به ، وهو " الثوب الأبيض "، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهولفظ (ناصع) على سبيل" الاستعارة المكنية "، ويصح أيضًا أن يكون قوله (وَعِرْضِي نَاصِعُ الْجَيْبِ وَافِرُ) "كناية" عن " الشرف والطهر" ، وهو كناية عن" صفة " .وخصَّ "العرض" بالذات لأنه موضع المدح أو الذم من الإنسان ، وما يفتخر به من حسب وشرف وخلق محمود .

وفي قوله (وافر) أي: تام ، كامل دون نقصان، " إطناب بالتتميم" ، إذ أُريد به المبالغة في مدحه بالشرف والعفة ، حيث بين نصوع شرفه وكرم أصله وظهوره للجميع لا تشوبه شائبة ،ولا ينتقص من قدره شئ ، ولذا عبر بلفظ (وافر) لبيان تمامه ، وعدم نقصانه ، وهذا أبلغ في المدح من عدم ذكره .

وفي البيت الرابع: يبين الشاعر اعتزازه بنفسه ،وفخره بأمانته ، وفضله ، ويُعرّض بخيانة غيره ونقصه بقوله :

فَلِي فِي مُرَادِ الْفَضْلِ خَيْرُ مَغَبَّةٍ **** إِذَا شَانَ حَيًّا بِالْخِيَانَةِ ذَاكِرُ

فبدأ بالفاء التي للترتيب والتعقيب للسرعة في الرد على أعدائه ، ولبيان فضله ومكانته ، وبيان نقيصة غيره .

وقد عرَّف نفسه بضمير المتكلم (الياء) في قوله (فلي) لأن المقام مقام تكلم ، وللأعتداد بنفسه ، والفخر بها ، وقد قدم الجار والمجرور (لي) لإفادة القصر ، فقد قصر مجال وميدان الفضل والخير عليه وحده دون غيره ، وهو" قصر ادعائي "، وكأنه يريد أن يقول أنا المخصوص بالفضل دون غيري ، وفي هذا مبالغة وادعاء بحيازته الفضل ، وقد عبر بلفظ التفضيل (خير) للمبالغة في الخيرية والأفضلية ، ولفظ خير فيه "إيجاز قصر " ، فهو لفظ جامع لكل خير، ولأفضل خاتمة وعاقبة ،وعبر بلفظ (في) في قوله (ولي في مراد الفضل) للدلالة عل التمكن والظرفية .

و(الفضل) كلمة جامعة لكل المعاني النبيلة من الجود ، والشجاعة ، والمروءة، ونصرة الضعيف ، وإغاثة الملهوب ...إلخ .

وفي قوله (إِذَا شَانَ حَيًّا بِالْخِيَانَةِ ذَاكِرُ) تعريض بخيانة غيره ونقصه ، وهو" كناية عن نفي الخيانة عنه "،وقد فهم هذا المعنى من السياق وقرائن الأحوال .وفي هذا دلالة على براعة البارودي ومقدرته في صوغ العبارات الدالة عن مكنون نفسه ، واستعمال الأساليب العربية التي تخدم مقصده .ولا يخفى ما لهذا من الأثر في النفوس ، فقد أعانه هذا الأسلوب على إخفاء ما يريد فلا يفهم مراده إلا بالتعريض.

وفي البيت الخامس : يواصل البارودي الافتخار بنفسه ، وبعدله ،وبإصلاحه لأمور الحكم وقت توليه الوزارة، وكل ذلك دفاعًا عن نفسه من تقول الأعداء عليه، فهو يدلل على قوله (وَعِرْضِي نَاصِعُ الْجَيْبِ وَافِرُ) فيقول:

مَلَكْتُ عِقَابَ الْمُلْكِ وَهْيَ كَسِيرَةٌ **** وَغَادَرْتُهَا فِي وَكْرِهَا وَهِيَ طَائِرُ

فقد شبه الملك والحكم والوزارة وقت توليه مسؤليتها وهي ضعيفة مترهلة، مليئة بالعيوب والثغرات بطائر مكسور الجناح ضعيف لا يستطيع النهوض والطير بجامع الضعف والهوان في كلٍ ، ثم حذف المشبه ، وتناسى التشبيه ، وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعار الطائر مكسور الجناح للملك والحكم والوزارة الضعيفة المترهلة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . ولا شك أنه أصاب في التشبيه ، وعبر عن الحالة المتردية للحكم في ذلك الوقت خير تعبير ، فقد رشح الاستعارة بقوله (وَغَادَرْتُهَا فِي وَكْرِهَا) ،ولاشك أن الترشيح قوى الاستعارة، فقد دعم الاستعارة بما يناسب ويلائم المستعار منه (وهو المشبه به)، وهذا يقويها ويجعلها أكثر مبالغة ، لأنها بعدت عن التشبيه الذي يقربها من الحقيقة ، وصارت دعوى اتحاد المشبه بالمشبه به موجودة ، وماثلة كأن الموجود في الكلام هو المشبه به فقط ، ولا يوجد أي أثر أو ذكر للمشبه .

وعبر ب(في) في قوله (في وكرها)للدلالة على التمكن والظرفية ، أي: في مقر الحكم ومكانه ،وملابسته له وتمكنه منه .

والضمير في (غادرتها) يعود على الحكم والوزارة ، وفي قوله (وهي طائر) "كناية " عن إصلاحه أمور الحكم ، وإزالة ضعفها وفسادها، ويصح أن تكون من قبيل" التشبيه البليغ " حيث شبه الحكم بعد إصلاحة بالطائر المحلق ، وكذلك قوله (وَهْيَ كَسِيرةٌ) " كناية عن فساد الحكم واعوجاجه " ، ويصح أيضًا أن تكون من قبيل" التشبيه البليغ" ، حيث شبه الحكم والوزارة قبل توليه بالإنكسار والضعف والهوان ، وفي هذا تصوير رائع يدل على مقدرة البارودي في صوغ العبارات الدالة عن مكنون مراده بسهولة فائقة .

وبين قوله (وَهْيَ كَسِيرةٌ) وقوله (وَهِيَ طَائِرُ) " طباق " ، قوى المعني وأكده في ذهن السامع والقارئ ، فالتقابل بين الصورتين فضلاً عن تثبيته المعنى في النفس ،أنه يصف الشئ المتحدث عنه إزاء الضدين المتقابلين ، فإنه يبين حال الحكم قبل توليه الوزارة من الضعف والإنكسار ، وحاله بعد توليه الوزارة من القوة والصلابة والعدالة وإصلاح الأمور .فالتقابل بين الشطرين ، وهي مقابلة (اثنين باثنين)أدى دوره في تأكيد المعنى في نفس المتلقي ، وشد انتباه السامع والقارئ لمراد الشاعر.

وقد وصل بين الشطرين للتوسط بين الكمالين " لاشتراكهما في الخبرية ، ولوجود المناسبة بينهما وهي " التضاد" .

<u>وفي البيت السادس</u> : يواصل البارودي الدفاع عن نفسه ، وسموه عن الدنايا والنقائص، وعفته عن الغدر والخيانة ، ويبين بإيجاز بديع أنه لو كان من أهل الدنيا ، وطلب شيئًا من عرضها الزائل ، لغمره الكثير من متعها من مال وسلطة وغيرها .فيقول :

وَلَوْ رُمْتُ مَا رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٍ **** لَصَبَحَنِي قِسْطٌ مِنَ الْمَالِ غَامِرُ

وقد أصاب البارودي في استعمال أداة الشرط " لو" دون غيرها ، فهي حرف امتناع لامتناع ، أي امتناع الجواب لامتناع الشرط ، وفي هذا تأكيد وجزم من البارودي بعدم ارتكابه الخيانة ، أو أي أمر يدنس عرضه ويشينه، وقد عبر بالاسم الموصول (ما) لستر المسئ بُعدًا عن فضيحته ، وأملاً في هدايته ،ولذا جاء لفظ (امرؤٌ) "نكرة " للتوبيخ والتحقير من شأنه ، وللدلالة على فرد غير معين ، وغير معروف ، وكذلك جاء لفظ (بخيانةٍ) نكرة "للتعميم والتحقير " فقرنت الخيانة بالباء "للملابسة " .

وفي قوله (وَلَوْ رُمْتُ مَا رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٌ) " كناية" "عن صدقه وترفعه عن الدنايا " ، وقدم الجار والمجرور (من المال) على لفظ (غامر) لأنه محل الاهتمام، وموضع التناحر والتكالب بين الناس ، ومظهر من مظاهر حب الدنيا .

وقد وصف المال بلفظ (غامر)على وزن (فاعل) للدلالة على الثبوت والدوام والكثرة، واختار لفظ (غامر) دون (كثير) ، أو غيره من المترادفات التي تؤدي نفس المعنى ، لأن الغمر أبلغ ، ففيه الكثرة والشدة وزيادة [١] .

وفي قوله (مِنَ الْمَالِ غَامِرُ) استعير الغمر لكثرة المال ، فالغمر يكون للماء وليس للمال ، فشبه كثرة المال بغمر الماء بجامع الكثرة والزيادة والتغطية ، ثم استعير لفظ المشبه به، وهو "غامر" للمشبه ،ثم اشتق من الغمر (غامر) بمعنى " كثير "على سبيل "الاستعارة التصريحية التبعية " .

وفي البيت السابع : يستدرك البارودي ويبين أن نفسه الكريمة تأبى أن تفعل ما تعاب عليه ، وتترفع أن تكون في موضع اللوم فيقول :

وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي الْكَرِيمَةُ سَوْأَةٌ **** تُعَابُ بِهَا ، وَالدَّهْرُ فِيهِ الْمَعَايِرُ

ففي قوله (وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي الْكَرِيمَةُ سَوْأَةٌ) " كناية عن عفته " ،وقد أضاف (النفس) إلى ضمير المتكلم (الياء) في قوله (نفسي) ، للتعظيم والتفخيم من

(١) انظر المعجم الوجيز ص ٤٥٤

شأنها ، واعتزازه بإباها وشموخها ، وكيف لا وهي نفس المحارب المقاتل الذي لا يرضى بالضيم ولا بالخذلان ، ولذا وصفها ب (الكريمة) ، وقد جاء لفظ (سوأة) نكرة للتعميم والتحقير ، ليعم كل عيب حتى ولو كان حقيرًا قليلاً .

وفي قوله (تعاب بها) " إرصاد وتسهيم " لقوله(وَالدَّهْرُ فِيهِ الْمَعَايِرُ) ، فالمعايرهي : هي المعايب [١] ، فلو وقف القارئ عند قوله (والدهر فيه) علم السامع أن بعده (المعاير) ، لما تقدم من الدلالة عليه .

وفي البيت الثامن: تأتي الحكمة من مجرب للحياة ، زهد الدنيا ومتعها من مال ، وسلطة ، وفضَّل خوض معارك الحياة بشجاعة في سبيل عزة نفسه، فيقول: أن ما يبقى للإنسان هو ما ينفقه في وجوه الخير والبر ، ليشتري به حمد الناس وثناءهم عليه .فيقول :

فَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَالَ يَنْفَعُ رَبَّهُ **** إِذَا هُوَ لَمْ تَحْمَدْ قِرَاهُ الْعَشَائِرُ

فانتقل سريعًا من الأسلوب الخبري في البيت السابق إلى الأسلوب الإنشائي مستخدمًا (النهي) الذي خرج إلى " النصح والإرشاد " ، وقد عبر عن هذه السرعة في النصيحة "بالفاء " التي للترتيب والتعقيب ، فليس المراد النهي عن جمع المال وعدم نفعه مطلقًا ، وإنما عدم النفع مشروط بعدم إيصال هذا الخير لأهله ،وعدم الحمد والثناء من العشيرة والأهل ، وهذا يشير أن المال في غير هذه الحالة وهي(الثناء والشكر من الأقوام لا نفع فيه ، ولا فائدة منه)، ولهذا فهو جدير بأن ينهي عنه .

وقد استعمل أداة الشرط " إذا" للدلالة على تحقق الوقوع ، وأنه أمر مجزوم به.

---

(١)انظر المعجم الوجيز ص٤٤٠

وقد حذف جواب الشرط والتقدير" فلا خير فيه " ، والحذف هنا لمجرد الاختصار ،وللإشارة إلى أن الجواب معروف لا يحتاج إلى ذكر ، فقد فهم من مضمون الشطر الأول فلا داعي لذكره .

فالبيت كله جرى مجرى الحكمة من مجرب عركته الحياة فذكر خلاصة تجربته فيها .

وفي البيت التاسع :يستمر الشاعر في التدليل على شرفه وعفته وزهده في الحياة بزخرفها وزينتها الزائلة ، ويصوغ أبيات الحكمة التي تؤكد كلامه ، فيضرب لذلك المثل بأحوال الناس مع المال ،فيبين أن المال قد يجتمع ويكثر مع من لا يستحق، مع من ليس له نصيب من العز والشرف والكرم ، وقد يقل المال ويندر مع صاحب المجد والشرف والعزة ، وهذا هو حال الحياة . فيقول :

فَقَدْ يَسْتَجِمُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبُ **** وَقَدْ لاَ يَكُونُ الْمَالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرُ

فعبر" بالجناس التام بين الحرفين " (قد) في أول البيت ، و(قد) في أول الشطر الثاني ، "فقد " الأولى معناها (التكثير) ، و" قد "الثانية معناها (التقليل) ، أى : كثيرًا ما يكثر المال ويجتمع مع من ليس له مجد ، ويقل المال ويندر مع صاحب العز والشرف والمجد ، ليكون" الجناس" خير وسيلة للدفاع عن نفسه ، فتجدد اللفظ مع حمله معنىً آخر غير المعنى المستخدم قبلاً كان أرسخ في النفوس ، وأشد تشوقًا لما استعمل فيه من معنى جديد ، وأدى إلى حسن الإفادة بأبلغ طريق.

وقد أضفت المقابلة بين شطري البيت على المعنى حُسنًا وبهاءً ، لما لها من أثر جليل في تثبيت المعنى وتقويته ، كما أضفت على القول رونقًا وبهجة ، وعملت على تقوية الصلة بين الألفاظ والمعاني ، وهي مقابلة (اثنين باثنين) ، فقد قابل بين (يستجم المال) أي : يُجمع ويكثر ، وبين قوله(لايكون مال) ، وبين قوله (غائب) و(حاضر) وإن كنا نلمس فيها شئ من التكلف .

وفي هذا البيت أيضًا " حسن التعليل " ، فقد علل حرمان الكريم صاحب المجد من المال " بعلو قدره ،وظهور مجده وشجاعته للقاصي والداني "، فحرمان الكريم الماجد من نعمة الغنى ، وصف ثابت لا يظهر له في العادة علة ، ولكن الشاعر عللله بعلو قدره ، ورفعة شأنه .

وفي هذا البيت أيضًا (تعريض) ، فالشطر الأول " تعريض بمن يملك المال وهو وضيع " ، والشطر الثاني " تعريض بمن خلا من المال وهو شريف عزيز ، صاحب فخر وكرامة " .

وفي قوله (المجد غائب ، والمجد حاضر)" استعارة مكنية بديعة " ، وسر بلاغتها التشخيص ، حيث صور الشاعر" المجد "وهو أمر معنوي في صورة حسية مشاهدة ، حيث شبه المجد بإنسان يغيب ويحضر ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو لفظا (غائب وحاضر) على سبيل "الاستعارة المكنية " ، فالاستعارة قد أوضحت الخفي ، وقربت المعنى البعيد ، وأكسبت المعنى جمالاً وبهاءً ، وأكدت المعنى المجازي المراد بتجسيد وتشخيص الأمر المعنوي ، وعرضه في صورة مرئية محسوسة ، فكان لها تأثيرٌ قويٌ في السامع والقارئ .

و(المجد) كلمة جامعة لكل معاني المروءة والشهامة والنصرة والعزة والكرم ...إلخ ، ففي هذه اللفظة "إيجاز قصر "، وهذا من روائع لغتنا العربية التي تعبرعن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة ، والبلاغة الإيجاز .

وهذا البيت مقتبس من قول (المتنبي) [١]

فَلاَ مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ***** وَلاَ مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

(١)انظر ديوان المتنبي – شرح أبي البقاء العكبري – ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقى – وإبراهيم الابياري – وعبد الحفيظ شلبي – الجزء الثالث – ص ٣٦٩ – دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت –لبنان .

فليس في معاني البارودي ابتكار بل أكثرها مأخوذ من معاني الشعراء قبله، كما نلمس التكلف في في مقابلة الضدين (المجد غائب ، والمجد حاضر) ، فليس بيت البارودي بالسهولة والسلاسة التي حظي بها بيت المتنبي ، كما نلمس الثقل في التعبير عن جمع المال وكثرته بلفظ (يستجم) ، ولا نجد مثل هذا الثقل في بيت المتنبي .

وفي البيت العاشر: يوضح البارودي أن الغني والمال لا يرفع صاحبه إلى السيادة والمجد ، ولو كان الأمر كذلك لغلب التاجر بكثرة ماله الفاضل الماجد وتفوق عليه . فيقول :

وَلَوْ أَنَّ أَسْبَابَ السِيَادَةِ بِالْغِنَى **** لَكَانَ رَبَّ الْفَضْلِ بِالْمَالِ تَاجِرُ

فعبر بأداة الشرط (لو) فهي حرف "امتناع لامتناع " ، فقد أراد القطع بانتفاء الجواب ،لانتفاء الشرط ، وقد عبر باسم الفاعل (كاثر) للمبالغة في الكثرة والغلبة للتاجر بماله ، لو كان الغنى هو محل الاهتمام ، وموضع التقدير ، وأساس المفاضلة . وقدَّم الجار والمجرور (بالمال) على لفظ (تاجر) لأنه محل الاهتمام ، وموضع إنكار الشاعر ، فهو ينكر أن يكون المال هو موضع وسبب السيادة والشرف . وقد دلل على ذلك بطريقة (أهل الكلام) ، فأسباب السيادة ليست بكثرة المال والغني ، ولو كانت كذلك لغلب وتفوق التاجر بالمال على صاحب الفضل ، وبما أن ذلك الأمر لم يحدث ، اذن فالمال ليس سبب في المجد والسيادة ، ولا شك أن إثبات الشاعر لمكانته وفضله بطريقة أهل الكلام ، بإيراد البراهين الساطعة ، والدلائل القاطعة على صحة ما يقول كان له أثره في إقناع العقل، وإمتاع النفس .

وفي البيت الحادي عشر:يؤكد الشاعر حيازته المكارم والمناقب والمآثر وهو خالي من المال ويعلل ذلك بضرب المثل الحسي المشاهد للعيان بقوله :

فَلاَ غَرْوَ أَنْ حُزْتُ الْمَكَارِمَ عَارِيًا **** فَقَدْ يَشْهَدُ السَيْفُ الْوَغَى وَهْوَ حَاسِرُ

فقد أقام الدليل على حيازته المكارم والمعالى وهو خالى المال بطريق (التشبيه الضمني) ، حيث شبه نفسه في امتلاكه السيادة والمكارم رغم خلوه من المال، بالسيف يشهد الحرب ، ولا يكسبها وينتصر فيها إلا إذا جرد من غمده، وذلك لإفادة أن الحكم الذي أسنده للمشبه أمر ممكن الوقوع، فالغرض من التشبيه ضرب المثل بشئ محسوس للتدليل على صدق ما يقول .

وقد عبر بالجملة الاسمية (وهو حاسر) للدلالة على الثبوت والدوام ، أي: أن هذه الصفة ثابتة للسيف لا تنفك عنه .

وفي البيت الثاني عشر : يعاود الشاعر الافتخار بنفسه ، وأنه لا يوجد ما يمنعه من طلب التقدم والرقي ، ولا يعوقه الفقر عن الوصول إلى المجد ، ولا يضعف همته فيقول :

أَنَا الْمَرْءُ لاَ يَثْنِيهِ عَنْ دَرَكِ الْعُلاَ **** نَعِيمٌ ،وَلاَ تَعْدُو عَلَيْهِ الْمَفَاقِرُ

فقدم المسند إليه وعرفه بضمير المتكلم (أنا) ، لأن المقام مقام تكلم ، وللتعظيم والافتخار بنفسه .

وجاءت المقابلة بين معنيين ، بين (لا يثنيه ، ولا تعدو عليه) ، وبين (نعيم ، والمفاقر) وهي مقابلة (اثنين باثنين) ، وقد أضفت على المعنى حسنًا وبهاءً، وكان لها أثرها في تثبيت المعنى وتقويته .

وقد عطف جملة (وَلاَ تَعْدُو عَلَيْهِ الْمَفَاقِرُ) على ما قبلها ، للتوسط بين الكمالين ، لاشتراكهما في الخبرية ، ووجود امناسبة بينهما ، فالمسند إليه فيهما واحد .

وقدَّم الجار والمجرور (عليه) على لفظ (المفاقر) لأنه محل الاهتمام . وعبر بـ (على) في "عليه " للدلالة على استعلاء الفقر وتمكنه منه .

وجاء لفظ "المفاقر" على وزن " مفاعل " ليشمل جميع وجوه الفقر .

والبيت كله " كناية عن العزيمة وقوة الإصرار في طلب المعالي والمجد "

وفي البيت الثالث عشر : يستمر الشاعر في الافتخار بنفسه ، والزهو بفصاحته ، وقدرته على حل المشكلات التي تأرق أعتى الرجال ، ويفتخر بشجاعته ، وشدة بطشه ، والفتك بأعدائه إذا اشتعلت الحرب . فيقول :

قَئُولٌ وَأَحْلاَمُ الرِجَالِ عَوَازِبٌ **** صَئُولٌ وَأَفْوَاهُ الْمَنَايَا فَوَاغِرُ

أي: (أنا قئول) ، و(أنا صئول) ،فحذف المسند إليه (لدلالة ما قبله عليه في البيت السابق) ، ولصونه عن الألسنة تعظيمًا له ،وللإسراع إلى بيان جليل صفاته . وقد آثر الشاعر التعبير بصيغة المبالغة (قؤول ، وصئول) على وزن (فعول) أي: كثير القول ، جيد التعبير في حين أن عقول الرجال فارغة ذاهبة من شدة الخوف ، وكثير الحركة في ميدان القتال ، أُكثر الهجوم على الأعداء في حين أن الموت يحصد النفوس ، للتعظيم من ذاته ، والافتخار بها .

وقد ورد في البيت عدة كنايات كان لها دورها في إبراز المعني المراد ، وتأكيده في ذهن السامع ، منها قوله (قئول) فهي كناية عن (فصاحته وبلاغته ومقدرته الشعرية) وهي " كناية عن صفة " ،وقوله (وَأَحْلاَمُ الرِجَالِ عَوَازِبٌ) كناية عن (اشتداد الخطب ، وتعقد الأمور) ، وقوله (صئول) كناية عن (شجاعته وإقدامه وخبرته الحربية) ، وقوله (وَأَفْوَاهُ الْمَنَايَا فَوَاغِرُ) كناية عن (اشتداد الحرب وهولها) ، فالكناية عرضت مراد الشاعر بإيجاز بديع ، مع ما فيه من المبالغة في الوصف ، وقد أعطت المعنى مصحوبًا بالدليل .

وفي قوله (وَأَحْلاَمُ الرِجَالِ عَوَازِبٌ) " استعارة مكنية " ، حيث شبه عقول الرجال الفارغة من التفكير السليم ، والآراء السديدة ،ولا فائدة منها ، بالزجاجة الفارغة التي لا فائدة فيها ، بجامع عدم الانتفاع في كل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو قوله (عوازب) أي : فوارغ ، على وزن فواعل للمبالغة أيضًا في فراغها وخلوها من كل مفيد ، وسر جمال هذه الاستعارة (التجسيم) والتوضيح ، حيث صور الشئ المعنوي في صورة حسية مشاهدة ، فيستقر المعنى في النفوس ، وتتمكن الصورة في ذهن السامع .

وفي قوله (وَأَفْوَاهُ الْمَنَايَا فَوَاغِرُ) "استعارة مكنية أيضًا " ، حيث شبه " المنايا " جمع منية وهي " الموت" ، بإنسان يفتح فاه من شدة هول المعركة ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهي لفظ (أفواه) على سبيل الاستعارة المكنية ، ولا يخفى ما في هذه الاستعارة من جمال وبهاء ، فقد جسدت الموت في صورة إنسان ، وألبسته حالة الفزع والخوف بفتح فاه ، فتصوير هذا الأمر العقلي في صورة حسية مشاهدة مكن المعني وقواه في ذهن السامع والقارئ .

وبين (قؤول ، وصئول) " جناس لاحق " لاختلاف اللفظان في حرفين متباعدين في المخرج ، فقد اختلفا في (القاف – والصاد) وهما متباعدان في المخرج ،(فالقاف) من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، وحرف (الصاد) من طرف اللسان مع ما بين الثنايا العليا والسفلى ، ولا شك أن الجناس أكسب الكلام حسنًا وبهاءً ، وجعل السامع يقبل نحوه ، ويصغي إليه .

<u>وفي البيت الرابع عشر</u> : يدلل الشاعر على حصافته ورجاحة عقله ، وأنه لا ينخدع بمظاهر الحياة ، وأنه وصل إلى حال من الرضا والقناعة بحيث لا يزهيه الغِنى ، ولا يحزنه الفقر. فيقول:

فَلاَ أَنَا إِنْ أَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ ** وَلاَ أَنَا إِنْ أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ بَاسِرُ**

فهو ينفي عن نفسه خداع الحياة ، فلا يسعده الغنى ، ولا يحزنه الفقر ، فعرَّف نفسه بضمير المتكلم (أنا) لأن المقام مقام تكلم ، وللاعتزاز والفخر بنفسه ، وثباته على المبدأ ، وعدم اغتراره بالزمن .

وقد زاد المعنى بهاءً "المقابلة" بين شطري البيت ،وهي مقابلة ثلاث معان بثلاث معان ، بين (أَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ) ، وبين (أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ بَاسِرُ) ، فقد أضفت على المعنى حسنًا وبهاءً، وكان لها أثرها في تثبيت المعنى وتقويته .

وقد جاء "الجناس " بين (باسم – وباسر) ليزيد الأسلوب رونقًا وجمالا ، ويجعل النفس تقبل عليه ، وتصغي إليه ، وهو (جناس مضارع) لاختلاف

اللفظان في حرفين متقاربين في المخرج ، فقد اختلفا في (االمـــيم – والـــراء)، (فالراء) من طرف اللسان مع الشفة العليا ، و (الميم)من الشفتين ، ولا شك أن الجناس أكسب الكلام حسنًا وبهاءً ، وجعل السامع يقبل نحوه ، ويصغي إليه .

وفي قول الشاعر(أَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ – و أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ باسِرُ) "مجاز عقلي" علاقته "السببية " ، ف(الوجد– والعدم) ليسا الفاعل الحقيقي في القرب من متع الدنيا أو البعد عنها ، وإنما هما سببٌ فيه ، والفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، أي: (أدناني الله بسبب الوجد ، وأقصاني الله بسبب العدم) ، فمـــن يملـــك الأرزاق ، ويقسمها على عباده هو الله تعالى ، ومن يفعل الفرح والحزن هـــو الله تعـــالى ، فالأمر كله بيد الله تعالى .وبلاغة المجاز في هذا : هو المبالغة في مدخلية السبب في حصول الفعل حتى صار كأنه الفاعل الحقيقي .

وقد استعمل مع جملة الشرط (إن) للشك وعدم الجزم بوقوع الشرط .

وفي البيت الخامس عشر : يوضح الشاعر معيار النفع والضر للإنسان في الغنى والفقر ، فيبين أن الفقر لا ينقص القدروالمكانة إذا كان العـــرض نقيًـــا ، والغنى والمال لا يسترالعيب الذي يدنس العرض ، ويخل بالشرف . فيقول :

فَمَا الْفَقْرُ إِنْ لَمْ يَدْنَسِ الْعِرْضُ فَاضِحُ *** وَلاَ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَشْرُفِ الْمَرْءُ سَاتِرُ

فجاء هذا البيت توضيح لما أُبهم في البيت السابق ، وقد جاءت المقابلة في موضعها اللائق بها ، فقد أوضحت المعني ، وبينت وأظهرت الصورة ، فالتقابـــل بين الصورتين (الفقر مع الشرف ، والغنى والمال مع عدم الشـــرف ، وتـــدنيس العِرض)، والضد يُظهر حسنه الضد ، وهي مقابلة " ثلاثة بثلاثة " ، (الفقـــر – وعدم تدنيس العِرض – فاضح) ، ويقابلهم على الترتيب (المال – وعدم الشرف – ساتر) .

وفي قوله (وَلاَ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَشْرُفِ الْمَرْءُ سَاتِرُ) " استعارة مكنية " ، حيث شبه المال بحائط يحول ويمنع ظهور العيب والنقيصة ، ثم حذف المشـــبه بـــه ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو لفظ " ساتر " على سبيل الاستعارة المكنية .

وعبر بلفظ " المرء " هنا (للتعميم) ليشمل الذكر والأنثى .

وفي البيت السادس عشر : يبين الشاعر أنه قوي النفس شديد العزم ، على الرغم من قلة ماله ، وأن المرء إذا لم يشرف بنفسه فإن ما يتحلى به من المال وغيره يكون عيبًا فيه ، فيضرب بذلك مثلاً لحاله ، فيشبه نفسه في إقدامه وجرأته ونيله من أعدائه ، بالسيف البتار إذا لم يكن ماضي الحدِّ ، كانت حليته في الحرب عار وعيب فيه فيقول:

إِذَا مَا ذُبَابُ السَّيْفِ لَمْ يَكُ مَاضِيًا **** فَحِلْيَتُهُ وَصْمٌ لَدَى الْحَرْبِ ظَاهِرُ

فجاء(التشبيه الضمني) قوي ومعبر عن مكنون الشاعر خير تعبير ، فقد عبر عن نفسه بأداة الحرب التي يتقنها ، ويتفوق فيها ، (السيف) ،ووجه الشبه " الشجاعة والقوة والبأس الشديد "، والغرض من التشبيه بشئ محسوس ليؤيد دعواه . وصدق من لقبه ب(رب السيف والقلم) .

وفي قوله (لم يك ماضيًا) إيجاز بحذف حرف (النون) ،وأصلها (لم يكن) ، فالحذف هنا للاختصار ، وللمحافظة على وزن الشعر ، وفيها إيحاء بالحالة النفسية التي عليها الشاعر .

وقد عبر بالفاء الواقعة في جواب الشرط للترتيب والتعقيب ، والسرعة في ظهور العيب . وفي قوله (لدى الحرب) " تكميل – أو احتراس "[١] فهو قيد يدفع توهم خلاف المقصود ، فلما كان في قوله (فحليته وصمٌ) يوهم أن تكون الحلية عيب في جميع الأوقات (في الحرب وفي غير الحرب) ، فدفع ذلك الوهم

---

(١)التكميل –أو الاحتراس : هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الإيهام ، وسمي بالتكميل : لتكملة المعنى بدفع إيهام خلاف المقصود ، وبالاحتراس : لأنه يحفظ المعنى من توهم غير المراد . انظر معاني التراكيب للدكتور/ عبد الفتاح لاشين –الجزء الثاني– ص ١٩٦ .

بقوله (لدى الحرب) ففي ذلك تنبيه على أن ذلك العيب وقت النزال والكر والفر وليس في جميع الأوقات .

وفي قوله (إِذَا مَا ذُبَابُ السَّيْفِ) " مجاز مرسل علاقته " الجزئية " ، حيث ذكر الجزء وهو (ذباب) أي: مقدمة السيف ، وأراد الكل وهو : السيف بكامله ، فمقدمة السيف لا تغني عن باقي جسم السيف ، فالجزء متصل بالكل لا ينفك عنه ، ولكنه ذكر أهم جزء في السيف وهو مقدمته ، التي بها الطعن والفتك .

وفي البيت السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر : يعزي الشاعر نفسه بأنه إذا كان انهزم في الحرب وأصبح حطامًا بفعل تلك الهزيمة التي عمَّ آثارها جميع ربوع الوطن ، وتأثر بها أهل البادية والحضر ، فلا عار عليه فكم من الأبطال من حاربته الأيام ، وكم من السادة من دارت عليه الدوائر،ولا يوجد سيف لم ينله الوهن والبرود والتكسير، ولا فرس جواد لم تعثر به حوافره. فيقول :

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ **** تَقَاسَمَهَا فِي الْأَهْلِ بَادٍ وَحَاضِرُ
فَكَمْ بَطَلٍ فَلَّ الزَّمَانُ ثُبَاتَهُ **** وَكَمْ سَيِّدٍ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ
وَأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلَالَةٌ؟ **** وَأَيُّ جَوَادٍ لَمْ تَخُنْهُ الْحَوَافِرُ؟

فهذه الأبيات تصور الحالة النفسية السيئة التي أصابت الشاعر بعد الهزيمة، وقد زاد الأمر عليه بعده ونفيه عن الوطن ، فهو يقدم التعزية لنفسه ، ويدلل على أن ما فيه ليس بدعة ، وإنما هو أمرٌ حاصل قد يقع فيه الجميع . ولذا بادر"بالفاءوقد والفعل الماضي (كنت – أصبحت)" في قوله (فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ)للسرعة في بيان تحقق ماهو عليه من الإنكسار والهزيمة والضعف .

وفي قوله (تَقَاسَمَهَا فِي الْأَهْلِ بَادٍ وَحَاضِرُ) " حسن التقسيم " ، فقد استوفى أقسام الأهل ما بين "باد "أي: من أهل البادية ، و" حاضر" أي: من أهل الحضر أي: المدن ، وقد بدأ بأهل البادية لأن الضرر الواقع عليهم أشد ، والمصيبة أكبر،

فقد زاد عليهم بعد ضيق العيش والحياة الجافة مرارة الهزيمة ، وعدم الأمـــان ، وجمعه في الكلام جميع الناس بكافة أصنافهم دلالة على مقــدرة الشـــاعر علـــى التعبير عن كل فئات الشعب ، وفي هذا تقوية للمعنى المراد ، وظهوره للعيـــان ، فيتمكن المعنى ويستقر في ذهن السامع ، وللمحافظة على وزن الشعر .

وبين (باد) ، و(حاضر) " طباق " أكد المعنى وقواه في ذهن السامع .

وفي قوله(فلَّ الزمان ثباته) "مجاز عقلى علاقته الزمانية " ، فقد أســند الفلّ والانكسار والتحطيم إلى الزمان ، والزمان ليس هو الفاعل الحقيقي ،وإنمـــا الفاعل الحقيقي لما هوفيه من تلك الحالة هو الأحداث التي حدثت في ذلك الزمن .

ويأتي جمال " التشبيه الضمني الذي برع الشاعر في إبرازه فـــي البيتـــين التاليين في قوله (فَكَمْ بَطَلٍ فَلَّ الزَّمَانُ ثَبَاتَهُ) ، وقوله (وَكَـــمْ سَـــيِّدٍ دَارَتْ عَلَيْـــهِ الدَّوَائِرُ) ،وقوله (وَأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلَالَةٌ؟)، وقولـــه (وَأَيُّ جَـــوَادٍ لَـــمْ تَخُنْـــهُ الْحَوَافِرُ؟) ، حيث شبه نفسه في عدم بلوغ المراد مع ما توافر لديه من مقومات المجد بالبطل الشجاع الذي اصبح حطامًا للأيام، وبالسيد الكريم الأصل الذي دارت عليه الدوائر، وبالسيف البتارالذي أصابه الكلل ، وبالجواد الذي لم تسعفه حوافره في السرعة ، ووجه الشبه (الشجاعة) ، فقد أقام الدليل على الحكم الذي أسنده إلى نفسه ، فدلل على أن ما حدث له ليس بالأمر النادر الغريب ، فاستشهد بهـــذه التشبيهات الضمنية على صدق ما يقول ، وأن ما حدث له ممكن ومعقول .

وقد دلل على ذلك بالأسلوب الإنشائي بطريق الاستفهام المراد منه "التقرير".

وقد أشاد بهذا اللون من التشبيه الإمام عبد القاهر الجرجـــاني ،إذ يقـــول : فهذا كله في أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ، ولكن كنى لك عنه ، وخودعت فيه ، وأتيت به من طريق الخلابة في مسلك السحر ، ومذهب التخييل فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن ، منيع الجانب . [١]

(١)انظر أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٨٨ .

وقد " نكَّر " لفظ (بطل – سيد – حسام – جواد) للتعميم والتكثير .

وفي قوله (وَأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلاَلَةٌ؟) " كناية عن الإخفاق في الضربة والهزيمة وعدم النصر " ، وفي قوله (وَأَيُّ جَوَادِ لَمْ تَخُنْهُ الْحَوَافِرُ؟) " كناية عن الكبوة والسقوط " ، وهذا كله (كناية عن صفة) ، وقد أخذ هذا القول من القول المشهور (لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة)

اللوحة السابعة:- بعنوان (أمل ويقين).

١- فَسَوْفَ يَبِينُ الْحَقَّ يَوْمًا لِنَاظِرٍ **** وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِ الْحُقُودِ السَّرَائِرُ[١]

٢- وَمَا هِيَ إِلاَ غَمْرَةٌ ، ثُمَّ تَنْجَلِي **** غَيَابَتُهَا ، وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ[٢]

٣- فَمَهْلاً بَنِي الدُّنْيَا عَلَيْنَا ، فَإِنَّنَا **** إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فِيهَا الْمَرَائِرُ[٣]

٤- تَطُولُ بِهَا الْأَنْفَاسُ بُهْرًا ، وَتَلْتَوِي**** عَلَى فَلْكَةِ السَّاقَيْنِ فِيهَا الْمَآزِرُ[٤]

٥- هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ وَاضِحٌ **** وَيَسْفُلُ كَعْبُ الزُّورِ ،وَالزُّورُ عَاثِرُ

٦- وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ **** فَمَا أَوَّلٌ إِلاَّ وَيَتْلُوهُ آخِرُ

---

(١)تنزو : تثب وتقفز وتظهر، من نزا الفحل نزوًا : وثب .انظر المعجم الوجيز ص ٦١١. والعوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة ، فالعُوار: العيب ، والعَوَرُ : الشين والقبح . انظر المعجم الوجيز ص ٤٤٠ .والحقود: جمع حقد ، وهو الضغن والانطواء على العداوة والبغضاء ونربص فرصة الإيقاع به . انظر المعجم الوجيز ص ١٦٢ .والسرائر : جمع سريرة، وهي السرُّ الذي يكتمه المرء في نفسه . انظر المعجم الوجيز ص ٣٠٩ .

(٢)الغمرة : الشدة . يقال غامر فلان : رمى بنفسه في الشدائد . انظر المعجم الوجيز ص ٤٥٤.وتنجلي : تنكشف وتزول . انظر المعجم الوجيز ص ١١٣. – وغيابة كل شئ : قعره وما سترك منه . والمراد بغيابة الغمرة : ظلمتها ، وما أصابه منها .انظر المعجم الوجيز ص ٤٥٨.

(٣)المراد بالغاية : يوم القيامة . وتنفت : تتفتت وتتقطع وتتمزق ، يقال : نفث الشئ : رمى به. انظر المعجم الوجيز ص ٦٢٥. – والمرائر : جمع (مرارة بالفتح) وهي: كيس لاصق بالكبد تختزن به الصفراء . انظر المعجم الوجيز ص ٥٧٨.

(٤)البهر (بضم فسكون) :تتابع النفس من الإعياء ، و(بالفتح المصدر) ، والبهر (بالفتح أيضًا) : الكرب، والتكليف فوق الطاقة . انظر المعجم الوجيز ص ٦٥.– وفلكة كل شئ : مستداره ومعظمه . انظر المعجم الوجيز ص ٤٨١.– والمآزر : جمع مئزر،وهو الإزار، وهو: ثوب يحيط بالجزء الأسفلمن البدن. انظر المعجم الوجيز ص ١٥.

في هذه اللوحة الشعرية يتجدد أمل الشاعر في ظهور الحق ، وانكشاف السرائر بما فيها من حقد وضغينة ، وأن لكل أول آخر ، وأنه سوف يأتي اليوم الذي تنجلي فيه الغمة ، وينصر الله فيه الحق ، ويخاطب الشاعر أعدائه المخدوعين بالدنيا فيقول : لا تشمتوا بنا ، ولا تغرنكم هذه الحياة الفانية ، فإننا جميعًا نسير إلى غاية واحدة هي الموت ، ويخلص الشاعر في أبياته إلى الحكمة الإلهية في خلق الله البشر ، ألا وهي الحساب وما يتبعه من ثواب الله أو عقابه ، فمن أحسن في دار العمل فله حسنة ، ومن أساء فعليه ، وسوف يشرق عليهم في هذا اليوم العسير شمس عدل الله ، وبغروبها يكون كل إنسان قد وفى حسابه، وليس الله بظلام للعبيد . فقال:

فَسَوْفَ يَبِينُ الْحَقَّ يَوْمًا لِنَاظِرٍ **** وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِ الْحُقُودِ السَّرَائِرُ

فبدأ "بالفاء" التي للترتيب والتعقيب ، و"سوف " التي للاستقبال ، للدلالة على سرعة عدل الله ، وانكشاف الغمة ، وظهور الحق ، وأنه آتٍ لا محالة .

وقد شبه "الحق " "بالشمس الساطعة "في "الوضوح والظهور والانكشاف "، وحذف المشبه به وهو " الشمس " ، ورمز إليه بشئ من لوازمها وهي لفظ " يبين " ،على سبيل " الاستعارة المكنية "، ولا شك أن الاستعارة أكدت المعنى المجازي المراد ، ودللت على ادعاء وضوح الحق وظهوره بأنه هو الشمس في سطوعها وظهورها ، فجسدت الاستعارة الشئ المعنوي ، وعرضته في صورة مرئية محسوسة ، فأضفت لونًا من الجمال زاهيًا ، وتأثيرًا في القارئ والسامع قويًا ، وأثرًا في القلب والنفس عظيمًا .

وقدم الظرف " يومًا" على الجار والمجرور " لناظرٍ" لأن المقدم أهم وأوثق بسياق الكلام ، فقدم ظرف الزمان (يومًا) لأن جلَّ همه هو مجئ ذلك اليوم الذي يظهر فيه الحق ، وتنقشع فيه غمة الظلم ، وحينها سيرى هذا الأمر كل الناس .

وقد " نكر " لفظ (ناظر) للتعميم ، ليعم كل من يتأتى منه النظر .

وقد حذف المسند إليه في قوله (يَبِينُ الْحَقَّ) ، لضيق الصدر عن الإطالة في الكلام ، لأن الشاعر في حالة نفسية سيئة ،وأراد الوصول إلى المطلوب الذي يشفي نفسه ، ويطمئن فؤاده ، وللإشارة إلى أن الفعل لا يصلح إلا للفاعل حقيقة أو ادعاء ، فالمسند إليه وهو الفاعل محذوف ،والتقدير (يبين الله الحق) ، وفي هذا إشارة إلى قدرة الله تعالى في رد الحق لأصحابه .

ووصل بين الشطرين (للتوسوسط بين الكمالين) لاشتراكهما في الخبرية .

وبين (يبين – وينزو) "ترادف " للتأكيد على ظهور الحق .

وفي قوله (وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِالْحُقُودِ السَّرَائِرُ) " كناية عن انكشاف الضغائن والأحقاد الدفينة" ، وقدم الجار والمجرور (بِعَوْرَاءِالْحُقُودِ) على قوله (السرائر) لأنها محل الاهتمام ، فالأفعال القبيحة ، والحقد والضغينة هي ما أودت بالشاعر فيما هو فيه من الهوان والنفي والتشريد والبعد عن الأهل والأوطان .

وبين (يبن، وتنزو – والسرائر) " طباق " قوى المعني وأكده في ذهن السامع .

وفي هذا البيت (تصريع) ، فعروض البيت وهي (ناظر) مقفاه تقفية الضرب وهو (السرائرُ) ، فقد اتفق العروض مع الضرب في (الراء) [١]

وفي البيت الثاني : يبين الشاعر أنه لا بد من يوم تنجلي فيه الغمة ، وتنقشع ظلمتها فيقول :

وَمَا هِيَ إِلاَ غَمْرَةٌ ، ثُمَّ تَنْجَلِي **** غَيَابَتُهَا ، وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ

فيؤكد أن ما هو فيه من نفي ، وبُعد عن الأهل وشدة وغمة سوف تنجلي ، وقد أكدها " القصر" بطريق (النفي والاستثناء) ، حيث قصر ماهو فيه على قوله" غمرة" أي: شدة ، (قصر موصوف على صفة) ، وقد آثر استعمال طريق (النفي والاستثناء) دون غيرها لأن المقام يقتضيه ، فهذا الطريق يستخدم في

(١)العروض : آخر تفعيله في الشطر الأول من البيت ، والضرب : أخر تفعيله في الشطر الثاني من البيت . انظر الإيضاح للخطيب القزويني ج ٦– ص ١١١

المعنى الذي يحتاج إلى توكيد وتقرير ، ومراعاة لحال المتكلم ، لذا كان هذا الطريق هو أنسب الطرق في هذا المقام .

وقد عرَّف تلك "الشدة " بضمير الغائب لأن المقام مقام غيبة (لكون المسند إليه في حكم المذكور) . وبين (تنجلي)و (غَيَابَتُهَا) " طباق " أكد المعنى وقواه في نفس السامع . والضمير في (غَيَابَتُهَا) يعود على (غمرة) ، والمراد "بغيابة الغمرة " ظلمتها ، وما أصابه منها ، وفي هذا تصوير ب" بالتشبيه البليغ " ، حيث شبه ما ألمَّ به بغمرة الماء، أو شدة ظلام وقع فيه ،بجامع شدة الظلمة و السواد في كل ،ولا شك أن التشبيه أضفى على المعنى حسنًا وبهاءً،وزاده قوةً وجمالاً ، ووضح الحالة النفسية للشاعر ، وأظهرها للعيان .

وقدم المسند إليه (الله) في قوله (وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ)، وعرَّفه "بالعلمية " (للتعجيل بإظهار تعظيمه ، وللتبرك بذكره ، وللدلالة على أنه لا ملجأ ولا معين إلا الله تعالى نلجأ ونركن إليه في جميع أمورنا .

وفي البيت الثالث والرابع: يخاطب الشاعر أعدائه وينبههم إلى عدم الشماتة ، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية ، فإننا جميعًا نسير إلى غاية واحدة هي الموت. فيقول :

فَمَهْلاً بَنِي الدُّنْيَا عَلَيْنَا ، فَإِنَّنَا **** إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فِيهَا الْمَرَائِرُ
تَطُولُ بِهَا الْأَنْفَاسُ بُهْرًا ، وَتَلْتَوِي **** عَلَى فَلْكَةِ السَّاقَيْنِ فِيهَا الْمَآزِرُ

فعبر "بالفاء" في قوله (فمهلاً) للسرعة في إبداء النصيحة ، وقد عرفهم بالإضافة ، فأضافهم إلى الدنيا ،في قوله (بني الدنيا) لتحقيرهم ، ولأن الإضافة تُغني عن تفصيل تركه أرجح لجهةٍ هي: خوف بطشهم وحقدهم عليه إذا صرح بأسمائهم ، ولبيان أنهم أهل دنيا ، يعملون لها ، وينشغلون بملذاتها ومغرياتها ، ولا يعملون لآخرتهم ، فيوجه لهم النصيحة لعلهم يعملون بها .

وفي قوله (إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فِيهَا الْمَرَائِرُ) قد يكون المراد بها أن ما يصبو إليه من العلا يحتاج لجهد ومكابدة قد يصاب الجسم بسببها بالمرض الشديد ، ويجوز أن يكون "كناية عن أهوال يوم القيامة وشدائده"

و"نكر" لفظ " غاية " هنا " للتعظيم والتهويل " من شأن ذلك اليوم .

وعبر بلفظ (في) في قوله (تَنْفَتُّ فِيهَا) للدلالة على التمكن والظرفية ، فالضمير في فيها يعود على لفظ (غاية) والمراد بها يوم القيامة .

وقد أطنب الشاعر في بيان مظاهر يوم القيامة للعبرة والاتعاظ فنراه يقول :

تَطُولُ بِها الْأَنْفَاسُ بُهْرًا ، وَتَلْتَوِي **** عَلَى فَلْكَةِ السَّاقَيْنِ فِيها الْمَآزِرُ

ففي هذا البيت(تفصيل وبيان) لما أُجمل في البيت الذي قبله ، فالبيت كله " كناية عن أهوال يوم القيامة وشدائده " ، وبين (بُهْرًا) و(تَلْتَوِي) " طباق " أكد المعنى ، وقواه في ذهن السامع .

وقد عبر ب (على) و(في) في قوله (عَلَى فَلْكَةِ) و(فِيها الْمَآزِرُ) للدلالة على التمكن والاستعلاءفي "على "، وكأن حرارة الأنفاس وتتابعها في ذلك اليوم كالريح العاصفة الشديدة التي تعلو كل شئ، فيتخبط ويضطرب كل من حولها ،وعبر ب(في) للدلالة على التمكن والظرفية ،وكأن الأنفاس من شدتها قد اخترقت الملابس وجعلت الأرجل تلتوي بداخلها خوفًا ورعبًا ، وفي هذا التصوير البياني الرائع نلمح صورة "المجاز المرسل " لعلاقة" المجاورة " ، فعبر بإلتواء الإزار ، والمراد إلتواء الأرجل ، فسمى الشئ باسم ما يجاوره ، فالالتواء يكون في الأرجل لا في الثياب .

<u>وفي البيت الخامس</u> : يعلو التنبيه ، ويلتقط الشاعر الأنفاس ، بأن هذا اليوم هو يوم الحساب ، يوم رد المظالم ، وأخذ كل إنسان حقه ، يوم يقف الناس جميعًا سواسية ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها فيقول :

هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ وَاضِحٌ **** وَيَسْفُلُ كَعْبُ الزُّورِ ،وَالزُّورُ عَاثِرُ

فكنى عن يوم القيامة بقوله (هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ)، وقد جاء الإطناب في هذا البيت في موضعه بتأكيد علو الحق ووضوحه ، وانحطاط الزور وانهزامه ، وفي هذا التأكيد إرضاء لنفس الشاعر الشغوفة في الخلاص مما هي فيه من قهر وظلم وتزوير للحقيقة .

وقد أدت " المقابلة " بين شطري البيت دورها في إبراز تللك الحقيقة الغافل عنها أصحابها ، فقابل بين (يعلو) و(يسفل) ، و(الحق) و(الزور) ، و(واضح) و(عاثر) ،وقد أكدت المقابلة مراد الشاعر ، فانتقال النفس من النقيض إلى النقيض ، ومن الضد إلى الضد ، جعل المعنى يتمكن في النفس ويستقر .

وفي قوله (ويسفل كعب الزور) " حشو غير مفسد للمعنى " ، فمن المعروف أن " الكعب " يكون يكون أسفل الرجل ، ولكنه أتى به ليدل على انحطاط الزور وتدنيه ، ففيه " مبالغة " في احتقاره .

وفي قوله (ويسفل كعب الزور) أيضًا " استعارة مكنية " ، حيث شبه الزور بالإنسان الوضيع ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو لفظ " كعب " ، وهذا المعنى مقتبس من قول أبو تمام [١] :

بَلَوْنَاكَ أَمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْوَرَى ***** فَعَلٍ ، وَأَمَّا خَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ

وقد عاب النقاد على أبي تمام هذا القول ، فاستقبحوا قوله (كعب عرضك)، (وخد مالك) ، وقالوا ما أقبح استعارتها [٢] ، ولا شك أن (كعب الزور) في قول البارودي شبيهة بهذه الاستعارات التي استنكروها .

---

(١)انظر ديوان أبو تمام – شرح الخطيب التبريزي – تحقيق محمد عبده عزام المدرس بمعهد اللغات الشرقية بجامعة لندن – المجلد الثالث – الطبعة الرابعة – دار المعارف – ص٧٣ .

(٢)انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – لضياء الدين بن الأثير –قدمه وعلق عليه د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طَلبانه – القسم الثاني– دار نهضة مصر للطبع والنشر– ص٨٠ .

وفي البيت السادس : يختم الشاعر الأبيات بتلك الحكمة الرائعة وهي: أن لكل أول آخر ، وأنه عما قريب سينتهي كل شئ ، وتنكشف الغمة ، وتنقشع الظلمة فيقول:

وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ **** فَمَا أَوَّلٌ إِلاَّ وَيَتْلُوهُ آخِرُ

ففي قوله (وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ) "كناية عن قرب حلول الفرج ، وانتهاء الأزمة " ، وهي "كناية عن صفة الخلاص من الكرب " ، وقد أكد انتهاء تلك المحنة بقوله (ينتهي الأمر كله) فجاء بلفظ " كل " للتأكيد على الشمول والعموم لكل ما يسئ ويضر ، وقد جاءت الكناية مصحوبة بالدليل والبرهان على انتهاء تلك المحنة بقوله (فَمَا أَوَّلٌ إِلاَّ وَيَتْلُوهُ آخِرُ) ، فأكد ما يقول " بالقصر " بطريق (النفي والاستثناء) ليؤكد الحقيقة الأبدية للأشياء ، وأنه لا شئ يخلد ويدوم ، وعلى الإنسان أن يجهد نفسه في سبيل الخير ، لأن العمل الصالح هو الذي يبقى أثره ، ويدوم فضله .

وبين(أول) و(آخر) " طباق " قوى المعنى وأكده في ذهن السامع .

في ظلال ما سبق :

بالطواف في هذه القصيدة نجد أن الشاعر:

- قد جسد مشاعر الأبوة في أسمى صورها ، وفي أبهى حللها ، وقد سيطر على القصيدة عاطفة الحزن والأسى لما أصاب الشاعر من النفي، والتشريد، والحرمان من الأهل، والبعد عن الأوطان، وتقوُّل خصومه عليه بما ليس فيه .
- امتازت القصيدة بقوة الأسلوب ، وجزالة الألفاظ ، وصفاء الديباجة ، ودقة التعبير ، واختيار الكلمات المعبرة الموحية في أغلب أبيات القصيدة،وإجادة التصويربأسلوب يثير الخيال ،ويصور خواطر النفس بأسلوب جميل يهز المشاعر، ويأسر القلوب .
- خلت القصيدة من التكلف الممقوت ، وجاءت كلماتها فصيحة سهلة النطق ، واضحة المعنى ، وقد غلب على القصيدة الأسلوب الخبري الذي يلائم الجو

النفسي الذي يعيشه الشاعر ، من النفي، والتشريد، والغربة، والبعد عن الأهل والوطن ، فتلاقى السامع مع الشاعر ، وتمت المشاركة الوجدانيـــة ، وحـــدث التأثير في النفوس ، ولم يستعمل الأسلوب الإنشائي إلا في حديثه عن طيـــف ابنته سميرة الذي زاره في منفاه ، وتمنى مكثه وبقائه معه حتى ولـــو طـــال عليه الظلام ، وفي مقام الفخر والاعتداد بنفسه ، وفي طلب المعالي ،والوصول لأسمى مكانة ، وفي موضع الحكمة وضرب الأمثال .

- أجاد في ضرب الحكم والأمثال ، وضمنها كثير من شعره، ومن ذلك : أن كثرة المال لا ترفع وضيعًا في قوله :

إِذَا مَا ذُبَابُ السَّيْفِ لَمْ يَكُ مَاضِيًا ** فَحِلْيَتُهُ وَصْمٌ لَدَى الْحَرْبِ ظَاهِرُ.**

إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنتها القصيدة .

- ضمَّن البارودي في هذه القصيدة الكثير من معاني الشعراء القدامى ، والحـــق أن هذا الاقتباس، وهذا التضمين لا يعيبه ، ولا يعد مأخذًا عليه ، فقد أســـلف العذر عن محاكاة الأقدمين ، إذ نص في تقديم بعض قصائده على أنها معارضة لقصيدة قديمة معروفة ، أو أنها رياضة للقول على طريقة العرب ، هذا إلـــى جانب أن رسالة البارودي في الشعر كانت رسالة بعث ، وأن روح البـــارودي كانت متصلة بالأقدمين كل الاتصال ، فقد كان يبعث معاني الأقدمين كما كـــان يبعث لغتهم. (١)
- امتازت القصيدة بتنوع الصور البيانية ،ما بين (كناية عن صفة ، وكناية عـــن موصوف ، واستعارة مكنية ، واستعارة تصريحية ، وتشبيه تمثيلي ، وتشبيه بليغ ، وتشبيه ضمني ، ومجاز مرسل ...) ، وقد كانت "الكنايـــة" مـــن أكثـــر الصور البيانية ورودًا في القصيدة ، ثم تلتها " الاستعارة المكنية " وذلك نظرًا للحالة التي يعيشها الشاعر من النفي ، والغربة ، وعدم وجود القسط الكـــافي

(١)انظر تقديم ديوان البارودي ص ٣٢-٣٣.

من الحرية في التعبير ، فكانت الكناية، والاستعارة المكنية هي المناسبة للمقام، و للحالة التي يعيشها الشاعر في منفاه .

- قليلٌ من الصور البيانية جاء غثًا باردًا، ومن ذلك قوله :

هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ وَاضِحٌ **** وَيَسْفُلُ كَعْبُ الزُّورِ ،وَالزُّورُ عَاثِرُ

فقد استنكرها النقاد وعابوا عليها كما عابوا على أبي تمام قوله:

بَلَوْنَاكَ أَمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْوَرَى ***** فَعَلٍ ، وَأَمَّا خَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ

فاستقبحوا قوله (كعب عرضك) ، (وخد مالك) ، وقالوا ما أقبح استعارتها ، ولا شك أن (كعب الزور) في قول البارودي شبيهة بهذه الاستعارات التي استنكروها . (١)

- امتازت القصيدة بالتنوع في الصور البديعية ، وكان أكثر صور البديع ورودًا " الطباق ، والمقابلة " ، فقد أراد الشاعر أن يوضح الصور المتناقضة ، ويبين التباين بينه وبين خصومه ، ومن يشمتون فيه ، ويتقولون عليه ، وهو الشريف الكريم ناصع الجبين ، الفارس المغوار الذي لم يجبن ، ولم يسترحم كما فعل زملاؤه فطال به النفي إلى سبعة عشرعامًا ،ولا شك أن " الطباق والمقابلة " من المحسنات البديعية المعنوية التي تؤكد المعنى،وتُظهر الصورة ،"فالضد يُظهر حسنه الضد".

(١)انظر البحث ص ٩٢

الخاتمة

وبعد .. فهذا جهد المقل ، وهذا قليلٌ من كثير ، وعلى قدر أهل العزم تؤتى العزائم ، وما هذا إلا محاولة مني للحبو في محراب هذا الشاعر العظيم الذي أثرى المكتبة العربية بتراث نفيس كالأحجار الكريمة ، كلما مرَّ عليها الزمن تزداد رونقًا وبهاءًا .

وإن الدارس والمتعمق في أشعار البارودي ليخرج بنتيجة هامة ألا وهي : أن على البلاغيين ألا يكتفوا بالسباحة فقط ، ولكن عليهم الغوص في هذا البحر الزاخر ليستخرجوا من الكنوز ما هو مكنون ، ومن اللألئ ما هو مطمور .

وأهم ما توصلت إليه من نتائج هي:

- تميزت قصيدة طيف سميرة للبارودي بصدق المشاعر ، ونبل العواطف ، وحكمة من عركته أحداث الحياة فتأثر بها ، وأثر فيها .

- إن قصيدة البارودي تناولت أغراضًا كثيرة ، ولكننا نلحظ أن غرض شعره الواضح الجلي ، والذي غلب على أبيات القصيدة هو " الفخروالاعتزاز بذاته" فأنشد يقول : (١)

أَنَا الْمَرْءُ لاَ يَثْنِيه عَنْ دَرَكِ الْعُلاَ **** نَعِيمٌ ،وَلاَ تَعْدُو عَلَيْه الْمَفَاقِرُ
قَتُولٌ وَأَحْلاَمُ الرِجَالِ عَوَازِبٌ **** صَئُولٌ وَأَفْوَاهُ الْمَنَايَا فَوَاغِرُ
فَلاَ أَنَا إِنْ أَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ **** وَلاَ أَنَا إِنْ أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ بَاسِرُ

- أخرج البارودي الشعر من غثاء المديح إلى التعبير عن الأحاسيس والمشاعر التي جسدتها قصيدة طيف سميرة .

- بنى البارودي القصيدة بناءًا شامخًا اعتمد فيها على الألفاظ الجزلة التي يتآلف فيها النغم ،وقوة الأسلوب ، وصفاء المعاني ، واختيار الكلمات ، وكأنما كان يملك اللغة امتلاكًا ، وهو في هذا يرسخ وجهة نظره في الشعر الجيد بطريقة عملية فهو يقول في مقدمة ديوانه: (أن الشعر الجيد ما كان قريب المأخذ ،

(١)انظر البحث ص ١٩٤٧ .

سليمًا من وصمة التكلف ، بريئًا من عشوة التعسف ، غنيًا عن مراجعة الفكرة).[١] ،وعلى هذا النحو أصبح شعر البارودي مهوى أفئدة العرب من الخليج إلى المحيط ، واتسع تأثيره في الأجيال التي خلفته ، فقلما ظهر شاعر من بعده إلا ومضى يستضئ من قيثارته العذبة .

- تعددت أغراض القصيدة ، فمن الحديث عن الطيف ،إلى الحديث عن الأبناء، إلى تصوير لوعة الفراق ، إلى وصف الدنيا ، إلى الحديث عن الصبر والأمل في الله ، إلى الحديث عن السيادة وما يلاقيه طُلابها ، ثم الفخر بالنفس ، وعدم شماتة الأعداء، والأمل في ظهور الحق ، وتنبيه الشامتين إلى قسوة يوم الحساب وشدته ، واستيفاء كل إنسان حقه .

والحق أن أغراض القصيدة وإن تعددت فهي متآخية ، تصدر عن جو نفسي واحد ، وهو جو الأسى والحزن لما أصاب الشاعر من نكبات ومصائب .

- أجاد في ضرب الحكم والأمثال ، وضمنها كثير من شعره ،ومن ذلك:

أ- الحكمة التي تقول أن للسيادة ثمن غالٍ ،وللمجد مشقات ومتاعب تتطلب بذل النفس في شجاعة ، ولهذا لم نعلم أن جبانًا قد ساد ، وأصبح له فضل، ولكن الفضل والسيادة للشجاع الوثاب إلى قمم المجد .

فنراه يقول [٢] :

وَلَوْلا تَكَالِيفُ السِيَادَةِ لَمْ يَخِبْ ***** جَبَانٌ ، وَلَمْ يَحْوِ الْفَضِلَةَ ثَائِرُ

وكذلك قوله :

تَقِلُّ دَوَاعِي الْنَفْسِ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ **** وتَقْوَى هُمُومُ الْقَلْبِ وَهْوَ مُغَامِرُ[٣]

ب-(حديثه عن أن الشر قد يأتي من مكمن الأمن) في قوله [٤]:

فَمِنْ صِحَةِ الإِنْسَانِ مَا فِيهِ سُقْمُهُ **** وَمِنْ أَمْنِهِ مَا فَاجَأَتْهُ الْمَخَاطِرُ

---

(١)انظر مقدمة ديوان البارودي ص٣ – ونوابغ الفكر العربي لعمر الدسوقي ص٣٦.
(٢)انظر ص ١٩٢١
(٣)انظر ص ١٩٢٢
(٤)انظر ص ١٩٣٢

ج- وحكمته التي دلل عليها بأن إدراك المجد ليس بكثرة المال ، فقد يدرك العلا وهو خالي من المال فيقول [١]

فَلاَ غَرْوَ أَنْ حُزْتُ الْمَكَارِمَ عَارِيًا **** فَقَدْ يَشْهَدُ السَيْفُ الْوَغَى وَهْوَ حَاسِرُ

د-ومن الحكم التي أطنب في بيانها ، وأفاض في تأكيدها ، وهي بيان أن المال لا يرفع من ضعة الخسيس فنراه يقول [٢]

إِذَا مَا ذُبَابُ السَّيْفِ لَمْ يَكُ مَاضِيًا **** فَحِلْيَتُهُ وَصْمٌ لَدَى الْحَرْبِ ظَاهِرُ

هـ - والحكمة التي تقول أن لكل أول آخر ، وأن الكل حتمًا إلى فناء وزوال فنراه يقول [٣]:

وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ **** فَمَا أَوَّلٌ إِلاَّ وَيَتْلُوهُ آخِرُ

وغير ذلك من الحكم والأمثال التي تضمنتها القصيدة ، وظهرت في ثنايا البحث .

- كما نجد أن أكثر معاني البارودي مأخوذة من معاني الشعراء المتقدمين ، فنجد (الاقتباس) كثير في شعره ومن ذلك :

أ-ما قاله عن طيف ابنته سميرة الذي زاره في منفاه ، فهو مأخوذ ممن سبقوه وأشهرهم البحتري حيث قال [٤] :

أَمِنْكَ تَأَوُّبُ الْطَّيْفِ الطَّرُوبِ ****** حَبِيبٌ جَاءَ يُهْدَى مِن حَبِيبِ

ب- وفي حديثه عن تكاليف السيادة ، وأنها ليست بالأمر الهين ،فقد أخذ هذا المعنى من قول المتنبي: [٥]

لولا المشقة ساد الناس كلهم **** الجُودُ يَفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

---

(١)انظر ص ١٩٤٦
(٢)انظر ص ١٩٥١
(٣)انظر ص ١٩٦٠
(٤)انظر ص١٨٧٥
(٥)انظر ص ١٩٢١

ج- وفي حديثه أن الإنسان يجب أن يكون طموحًا ولا يجب أن يكتفي بأدنى معيشة ،فإن كان كذلك أغناه القليل الزهيد من الطعام والشراب ، وكفته عيشته المتدنية ، فقد اقتبس هذا المعني من قول امرىء القيس الكنديّ : (١)

فلو أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشةٍ ***** كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ- قَلِيلٌ من المالِ .

وغير ذلك من المعاني المقتبسة الواردة في ثنايا البحث .

- زخرت القصيدة بالعديد من الصور البيانية الرائعة التي جذبت انتباه السامع والقارئ وكان لها في النفس فضل تمكن ، ومن ذلك قوله: (٢)

طَوَى سُدفَةَ الظَلْماءِ ، والَّليلُ ضَارِبُ **** بِأَرْوَاقِهِ ، والنَجْمُ بالأُفقِ حَائرُ

" كناية عن شدة الظلمة " ، وتشبيهه حال الدنيا ، وكثرة تلونها لخداع طالبيها، ثم لا تلبث فتفتك بهم ، بحال المرأة اللعوب المراوغة ،كثيرة ألوان الزينة لإغراء مريدوها في قوله: (٣)

كَثِيرَةُ أَلْوَنِ الوِدَادِ ، مَلِيَّةُ ***** بِأَنْ يَتَوقَّاهَا القَرِينُ المُعَاشِر

وغير ذلك من الصور البيانية الرائعة التي ذكرت في ثنايا البحث .

- كما كان للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية أبلغ الأثر في إمتاع الأسماع ، وشد انتباه السامع والقارئ ، وقد جاءت عفو الخاطر دون تكلف ، وقد استدعاها المقام ، وطلبها السياق ، فوضعت في مكانها اللائق بها .

وبعد فهذا غيض من فيض ، فرحم الله البارودي بقدر ما أجزل العطاء ، وبقدر ما أمتع نفوسنا بصدقه، وعذوبة قصائده ، وبقدر ما أعاد الأمل والحياة للشعر العربي فجعله يلمع لمعة السراج في الظلماء .

"والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله "

د/ هويدا إبراهيم حسن

---

(١)انظر ص ١٩٢٨
(٢)انظر ص ١٨٧٥
(٣)انظر ص ١٩٠١

المراجع والمصادر

اعتمدت في بحثي هذا على ديوان الشاعر محمود سامي البارودي – ضبط وتصحيح وشرح على الجارم بك – ومحمد شفيق معروف – الجزء الأول والثاني. مرجعًا أساسيًا إضافة إلى مراجع أخرى هي:

١- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني – علق حواشيه الأستاذ / أحمد مصطفى المراغي – مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٢- الألوان البديعية د/ حمزة الدمرداش زغلول – الطبعة الثالثة – ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م – دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

٣- أوفى سبيل إلى علمي الخليل للأستاذ الدكتور/ عبد النعيم علي محمد علي عبد ربه – ١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م .

٤- الإيضاح للخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) – شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي – الطبعة الثانية – مكتبة الكليات الأزهرية –الأزهر – القاهرة .

٥- البارودي رائد الشعر الحديث د/ شوقي ضيف – الطبعة الثالثة ١٩٧٧م– مطبعة دار المعارف بالقاهرة.

٦- بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي –ج ٣ – الطبعة السادسة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م–مكتبة الآداب – ميدان الأوبرا القاهرة .

٧- البيان الوافي د/ حمزة الدمرداش زغلول –الطبعة الأولى .

٨- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرماني والخطابي والقاضي الجرجاني – حققها وعلق عليها محمد خلف الله –ومحمد زغلول سلام – دار المعارف القاهرة.

٩- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر – نشر مكتبة الخانجي– الطبعة الثانية ١٤١٠هـ – ١٩٨٩ م .

١٠-دلالات التراكيب دراسة بلاغية -د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبه – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

١١-ديوان أبو تمام – شرح الخطيب التبريزي – تحقيق محمد عبده عزام المدرس بمعهد اللغات الشرقية بجامعة لندن – المجلد الثالث – الطبعة الرابعة – دار المعارف .

١٢-ديوان أبي فِراس الحمداني – شرح الدكتور/ خليل الدويهي -دار الكتاب العربي .

١٣-ديوان امرئ القيس -تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الخامسة -دار المعارف .

١٤-ديوان البحتري (الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري) – عُنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل المرصفي – المجلد الأول – الطبعة الثالثة – دار المعارف .

١٥-ديوان المتنبي – شرح أبي البقاء العكبري – ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقى – وإبراهيم الابياري – وعبد الحفيظ شلبي – الجزء الثالث – دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت -لبنان .

١٦- الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفي سنة ٣٩٥هـ - حققه وضبط نصه د/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت -لبنان – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩.

١٧-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت لبنان .

١٨-لسان العرب المحيط للعلامة ابن منظور – الجزء الخامس - إعداد وتصنيف نديم مرعشلي يوسف خياط – دار لسان العرب – ودار صادر – بيروت.

١٩-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – لضياء الدين بن الأثير –قدمه وعلق عليه د/ أحمد الحوفي و د/ بدوي طَلبانه – القسم الثاني – دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٢٠-معاني التراكيب د/عبد الفتاح لاشين –الجزء الثاني- ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .

٢١-المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم –د/ عبد الفتاح لاشين –دار الفكر العربي ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٢-المعجم الوجيز- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م مجمع اللغة العربية – طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

٢٣- المعجم الوسيط الشبكة العنكبوتية .

٢٤- من بلاغة النظم العربي –دراسة تحليلية لمسائل علم البديع – د/ عبد العزيز عرفة – الجزء الرابع – الطبعة الثانية ١٩٩٥م .

٢٥-من بلاغة النظم العربي د/ عبد العزيز عرفة – الجزء الأول – عالم الكتب – الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

٢٦-مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص – الجزء الرابع – لابن يعقوب المغربي –الطبعة الأولى – المطبعة الأميرية – بولاق مصر ١٣١٨هـ

٢٧- نوابغ الفكر العربي (محمود سامي البارودي)بقلم عمر الدسوقي –الطبعة الرابعة١٩٨١- دار المعارف القاهرة .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	١٨٥٥
٢	تمهيد:	١٨٥٩
٣	التعريف بالشاعر	١٨٥٩
٤	من سمات شعر البارودي	١٨٦١
٥	الدراسات السابقة	١٨٦٦
٦	تقديم للقصيدة	١٨٦٧
٧	اللوحة الأولى : (خيالٌ زائرٌ) بين البلاغة والنقد	١٨٧٢
٨	اللوحة الثانية : - بعنوان (صفات ابنته وأترابها)	١٨٨٢
٩	اللوحة الثالثة : - بعنوان (خداع الحياة وتقلباتها)	١٨٩٢
١٠	اللوحة الرابعة : - بعنوان (صبر وأمل)	١٩٠٤
١١	اللوحة الخامسة : - بعنوان (حكم وأمثال)	١٩١٣
١٢	اللوحة السادسة :- بعنوان (فخر واعتزاز).	١٩٣٣
١٣	اللوحة السابعة:- بعنوان (أمل ويقين).	١٩٥٤
١٤	في ظلال ما سبق	١٩٦٠
١٥	الخاتمة	١٩٦٣
١٦	فهرس المصادر والمراجع	١٩٦٧
١٧	فهرس الموضوعات	١٩٧٠